سلسلة دروس ومؤلفات الشيخ عبد الرحمن السند (٦)

حديث الأربعاء

المجموعة الأولى

عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد السند

الرئيس العام لرئاسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
والمدرس بالحرمين الشريفين

حديث الأربعاء

المجموعة الأولى

سلسلة دروس ومؤلفات الشيخ عبد الرحمن السند (٦)

حديث الأربعاء

المجموعة الأولى

عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد السند

الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والمدرس بالحرمين الشريفين

ح
الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ١٤٤٠ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
السند، عبدالرحمن بن عبدالله
حديث الاربعاء. / عبدالرحمن بن عبدالله السند . - الرياض، ١٤٤٠ هـ
١٨٤ ص ؛ ١٧ x ٢٤ سم. - (سلسلة دروس ومؤلفات الشيخ عبدالرحمن السند؛ ٦)
ردمك: ٣-٧١-٦٨٥-٩٩٦٠
١- الفضائل الإسلامية أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي: ٢٣٧.٣ ١٤٤٠/٩٨٠٤

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩٨٠٤
ردمك: ٣-٧١-٦٨٥-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه، وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليمًا كثيرًا، **أمَّا بعد:**

فقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يُحدِّث أصحابه كلَّ خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إنَّا نحب حديثك ونشتهيه، ولوددنا أنك حدَّثتنا كل يوم، فقال: «أمَا إنه ما يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم، وإني أتخوَّلكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها؛ مخافة السآمة علينا»[(١)].

واستنانًا بهذا فقد كنتُ أُحدِّثُ كلَّ يوم أربعاء بعد صلاة الظهر في مسجد الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة إبَّان إدارتي لها، ثم بمصلَّى الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد تكليفي برئاستها.

وصحَّ العزم مني على إخراج تلك الكلمات بعد مراجعة المسموع وتحريره؛ ليكون مناسبًا للنشر، مع زيادات يقتضيها المقام بما لا يخرج الكتاب عن أصله.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

أسأل الله أن يبارك فيها، وأن يجعلها من العمل الصالح الذي أنتفع به في الدَّارين.

كما أسأله ﷻ أن يحفظ لهذه البلاد أمنها واستقراراها، وأن يحفظ ولاة أمرها، وصلَّى الله على نبينا محمد.

يا عبادي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فأخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبي ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ[1] «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا.**

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.

يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «كلام الله قد يكون قُرآنًا، وقد لا يكون قرآنًا، والصَّلاة إنما تجوز وتصح بالقرآن» «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٧٨).

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[(١)].

هذا الحديث شريف القدر، عظيم المنزلة؛ ولهذا كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: هو أشرف حديث لأهل الشام[(٢)]، وكان أبو إدريس الخولاني[(٣)] إذا حدَّث به جثا على ركبتيه.

وهذا الحديث قد تضمن من قواعد الدين العظيمة: في العلوم والأعمال والأصول والفروع[(٤)]

وتتبع فوائد هذا الحديث تطول ذيوله، ولكن حسبنا الإشارة إلى بعضها بما يناسب المقام:

---

(١) مسلم (١٩٩٤).

(٢) فرواته كلهم شاميون، وأبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل الشام.

(٣) عائذ الله بن عبد الله، ويقال عيذ الله بن إدريس بن عائذ قاضي دمشق وعالمها، وواعظها. روى عن عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت وآخرين. وعنه جماعة منهم الزهري وربيعة بن يزيد وبشر بن عبد الله ومكحول. قال مكحول: ما رأيت مثل أبي إدريس الخولاني. وقال سعيد ابن عبد العزيز: كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبي الدرداء. وقال أبو زرعة: أحسن أهل الشام لقيا لأجلَّة أصحاب رسول الله ﷺ: جبير بن نفير وأبو إدريس وكثير بن مرة. توفي سنة ثمانين للهجرة. «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٧٢)، «تاريخ الإسلام» (٢/ ٨٩٠).

(٤) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٥٦)، «الفتاوى الكبرى» (١/ ٩٠).

قوله ﷻ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا».

فقد حرَّم الله الظلم على نفسه، والتحريم ضد الإيجاب، وبين الله ﷻ في القرآن أنَّه كتب على نفسه الرحمة كما قال تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وحرَّم على نفسه الظلم، كما في قوله تعالى ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكما في هذا الحديث. فهو حق أحقَّه سبحانه على نفسه لا أنَّ أحدًا من الخَلْق يوجب عليه حقًا ويحرم عليه شيئًا.

والظلم الذي حرمه الله على نفسه هو فعل ما بيَّنه عنه الربُّ ﷻ، مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها؛ أو أن يعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات، أو أن يعاقب مخلوقًا بذنب غيره، أو أن يحكم بين الناس بغير القسط، فكل هذا وأمثاله مما يُنزَّه عنه الربُّ ﷻ مع قدرته عليها، وإنما كان استحقاقه للحمدِ والثناءِ؛ لتركه هذا الظلمَ الذي هو في مقدورهِ ومكنته، فالله سبحانه حَكَمٌ عَدلٌ لا يضع الأشياء إلا في مواضعها، ووضعها في غير مواضعها ليس ممتنعاً لذاته؛ بل هو ممكن لكنه لا يفعله لأنه لا يريده؛ بل يكرهه ويبغضه؛ إذ قد حرمه على نفسه، «فكما أنَّ الله مُنزَّه عن صفات النَّقص والعيب فهو أيضًا منزَّه عن أفعال النقص والعيب»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهو سبحانه حكم عدل، لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه ويقتضيه

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٤٦).

العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلين ولا يساوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة، ولا يعاقب أهل البر والتقوى»[(١)].

وقوله ﷻ في هذا الحديث: «**وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**» يجمع الدِّين كله فكل ما نهى الله عنه ﷻ فهو ظلم، وكل ما أمر الله به فهو عدل.

فلا يظلم الإنسانُ غيره، ولا يظلم نفسه، ولا يظلم قبل ذلك ربه.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **أنَّ الظلمَ نوعان:**

أحدهما: ظلم المرء نفسه، وأعظمه الشرك والكفر على اختلاف أنواعهما، ثم تليها المعاصي على اختلاف أجناسها.

والثاني: ظلم المرء غيره، وهو ينقسم إلى قسمين:

ظلم يحصل بغير رضا المظلوم كقتله أو أخذ ماله أو انتهاك عرضه.

وقسم يحصل برضاه، كما يحصل في المعاملات الربوية التي فيه ظلم ولو رضي المظلوم بذلك[(٢)].

وظلم العباد بعضهم بعضًا هو المنهي عنه ها هنا فقوله: «**لا تَظَالَمُوا**» أصلها: لا تتظالموا، أي: لا يظلم بعضكم بعضًا.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ٥٧٨).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٧٩)، وينظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٦).

فَأنْ تَجعل لله ندًا وهو خلقك هذا من الظلم.

ومن الظلم للنَّاس أن تعتدي على حقوقهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣]، فيقتص المظلوم من الظالم حَقَّه.

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧].

وفي الصحيحين: «**من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين**»(١).

والله تعالى يقتصُّ للمظلوم؛ حتى من البهائم، فيقتص للجلحاء من القرناء(٢)؛ لأنها ظلمتها، وهذا إذا كان في البهائم وهن غير مكلفات، فكيف بالمكلف من الإنس والجن؟!

ثم بعد ذلك جاءت النداءات: «**يا عبادي**» والتي تكررت في هذا الحديث إظهارًا للافتقار إلى الله في كل الشؤون، وأنَّ الأمور كلها بيد الله فهو الرَّبُّ الرازق المطعم، وهو الهادي الغفار.

قال ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحاصل من كل ذلك: التنبيه على فقر العبد، وعجزه عن طلب المنافع، ودفع المضار إلا بتيسيره»(٣).

فالعباد جميعًا مفتقرون إليه:

---

(١) البخاري (٢٤٥٣)، مسلم (١٦١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، ولفظه: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء**».

(٣) «المعين على تفهم الأربعين» (ص٢٦٩).

في الهداية: «**كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ**».

وفي الإطعام: «**كلكم جائع إلا من أطعمته**».

وفي الكسوة: «**كلكم عار إلا من كسوته**».

وفي مغفرة الذنوب: «**إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا**».

فالله تعالى هو الهادي وهو المغني وهو المعطي وهو الغفور وهو الرحيم، وأنه مع هذا كله لا ينتفع الله تعالى بطاعة الطائع، ولا تضره معصية العاصي، وإنما هذا من محبة الربِّ ﷻ أن يتعرف عليه عباده بصفات الكمال والجلال التي يتصف بها سبحانه، فهو يحبُّ من عباده أن يعرفوه، ويحبوه، ويخافوه، ويتقوه، ويطيعوه، ويتقربوا إليه، ويحبُّ أن يعلموا أنَّه لا يغفر الذنوب غيره، وأنَّه قادر على مغفرة ذنوب عباده كلها: دِقِّها وجِلِّها، صَغيرها وكَبِيْرها.

وإنَّ منْ تفرد بخلق العبد، وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته فِي الدنيا، وبمغفرة ذنوبه فِي الآخرة، هو المستحقُ أن يُفرَد بالتَّأله والعبادة والسؤال والتضرع والاستكانة له.

فما أحوج القلوبَ للتعلق بالله ﷻ في سؤاله ما مرَّ معنا، وكثرة السؤال يحبها الله ﷻ لأنها دليلُ توحيدِ السائل وتعلُّق قلبه بالله ﷻ.

«**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني، فأعطيت كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**».

فكثرة السائلين لا تنقص من ملك الله تعالى شيئًا، أرأيتم ما أنفق

منذ خلق السماوات والأرض إلى أن يرث الله ومن عليها، لا ينقص ذلك مما عند الله، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، فإن البحر إذا غمس فيه إبرة، ثم أخرجت لم ينقص من البحر بذلك شيء.

فخزائنه مليئة لا يغيضها كثرةُ الإنفاق، ولذلك الحاجةُ والفقر من العبد، والله الغني ونحن الفقراء، فأَظْهِرْ فَقرك وحاجتك لله تعالى؛ وذلك بسؤاله، والإكثار من الإلحاحِ على الله تعالى في طلب الهداية ومغفرة الذنوب، وأن يستر الله تعالى عورتك، وأن يغنيك عن خلقهِ، وأن يغفر الزلل والخطأ، فإنَّ العبد في ذلك إذا استجيب دعاؤه كانت سعادته في الدنيا والآخرة.

والأمر هيِّن لمن وفقه الله، فسؤال الله تعالى عِبادة، والتذلل والافتقار إليه مما يزيد العبد رفعة وقربًا من الله تعالى وتوفيقًا وتسديدًا، فما أحوجنا إلى عفو الله ومغفرته وفضله وجوده وإحسانه.

ولا غنى لك - يا عبد الله - عن الله طرفة عين، فَعلِّق قلبك بربك، واقطع العلائق عن غيره، فمن كان الله معه فهو حسبه وكافيه، وهو سبحانه وتعالى إذا كان مع العبد، فإن السَّعادة في دنياه وأخراه مكتوبة له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النّحل: ١٢٨].

وتذكَّر أنَّ الله يحصي أعمالنا، ثم يجازينا عليها: «**يَا عِبَادِي: إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»، يعني: أنَّه سبحانه يحصي أعمال العباد، ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها.

وهذا كقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزلة: ٧-٨].

وقوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

والمعنى: «**فمن وجد خيرًا**»؛ **أي**: ثوابًا ونعيمًا، أو حياة طيبة هنيئة، «**فليحمد الله**» الذي وفقه للطاعات والأعمال الصالحات فالخير كله من الله، «**ومن وجد غير ذلك**»؛ أي: شرًّا، «**فلا يلومن إلا نفسه**» فهي الملومة دون غيرها، فإنَّ الله أوضح الطريق، وبيَّنَ الحجة والمحجة.

وهذا الخير والشر قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة.

ومن أسمائه ﷻ «**الحسيب**»، وهو كما قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «بمعنى الرَّقيب الحاسب لعباده المتولي جزاءهم بالعدل وبالفضل، وبمعنى الكافي عبده همومه، وغمومه. وأخص من ذلك أنَّه الحسيب للمتوكلين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: ٣]، أي: كافيه أمور دينه ودنياه».(١)

قَالَ الفضيل بن عياض رحمه الله: «ما منْ ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، إلا نادى الجليل جلَّ جلالُه: مَنْ أعظمُ مني جودًا؟ والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقبٌ، أكلؤهم فِي مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولَّى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود بالفضل عَلَى العاصي، وأتفضل عَلَى المسيء، منْ ذا الذي دعاني فلم أستجب إليه؟ أم منْ ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أم منْ الذي أناخ ببابي فنحيته؟ أنا الفضل ومني الفضل، أنا الجواد ومني الجود، وأنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أعطي

(١) «توضيح الكافية الشافية» (ص١٢٦).

التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلائق؟ وأين عن بابي يتنحّى العاصون»[١].

وبالجملة، فالحديث مُشَوِّق إلى الله سبحانه وتعالى، وحامل عَلَى ترك الالتفات لما سواه.

أسأل الله أن يبصرنا في أمور ديننا، وأن يغفر لنا زللنا، وأن يستر عيوبنا، وأن يرحمنا.

اللهم احفظ علينا أمننا وإيماننًا، وأصلح ولاة أمورنا، وأيدهم بتأييدك، وصلَّى الله على نبينا محمد.

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٢).

فوائد من حديث قاتل المائة نفس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ نَبيَّ الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنَّه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمَّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنَّه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة**»[(١)].

هذا الحديث فيه فوائد:

الفائدة الأولى: أنَّ النَّبي ﷺ كان يُحدِّث عن الأمم السابقة؛ للعبرة

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، واللفظ له.

والعظة والاعتبار، وهذا فيه دلالة على أنَّ الحكمة ضالة المؤمن[١]، وأنَّ ما فيه فائدة وعبرة وعظة يأخذه الإنسان، ويستفيد منه، وليس هذا العمل إلا بما دلت عليه الشريعةُ، وحثَّت عليه مبادئ هذا الدين العظيم، ولهذا سمع النَّبي ﷺ مائة بيت من أبيات أمية بن الصلت مع أنَّه كان كافرًا[٢]، لما فيها من الإقرار بالوحدانية لله ﷻ والبعث والنشور، والحكمة والتأمل الصحيح، بل قال ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه في قصَّته مع الشيطان عندما علَّمه أن يقرأ آية الكرسي عند نومه: «**صدقك وهو كذوب**»[٣].

الفائدة الثانية: فَضْل العَالِم على النَّاس، وأنَّ العَالِم رحمة يبعثها الله تعالى للناس، وأنَّه من أسباب حفظ أمنهم واستقرار حالهم.

انظر إلى هذا العالم الذي أفتى هذا القاتل بالحكم الصحيح، وأن التوبة تكون مقبولة ولو لمن قتل هذا العدد الكبير، فإذا تابَ تاب الله عليه، وأنه بهذه الفتوى حال بين هذا القاتل المفسد والاستمرار في فساده في الأرض، فإن هذه الفتوى حملته على ترك هذا الإجرام.

---

(١) روى الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩) وغيرهما من طريق إبراهيم بن الفضل عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعًا: «**الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها**»، وهو حديث ضعيف جدًا، إبراهيم متروك الحديث.

(٢) أخرج مسلم (٢٢٥٥) عن عمرو بن الشريد، عن أبيه، قال: ردفت رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «**هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟**» قلت: نعم، قال: «**هيه**» فأنشدته بيتًا، فقال: «**هيه**» ثم أنشدته بيتًا، فقال: «**هيه**» حتى أنشدته مائة بيت، وقال: «**فلقد كاد أن يسلم في شعره**».
و«**هِيْهِ**»: - بكسر الهاء وإسكان الياء وكسر الهاء الثانية - وهي كلمة للاستزادة من الحديث المعهود، وهي مبنية على الكسر، فإن أردت الاستزادة من حديث غير معهود نوَّنت فقلت: (إيهٍ) لأن التنوين للتنكير.، وجاء في رواية أحمد (١٩٤٥٧): «**هِيْ**»، وفي رواية (١٩٤٦٧): «**إِيْهِ**»

(٣) علَّقه البخاري في صحيحه (٢٣١١)، ووصله النسائي (١٠٧٢٩).

وهكذا أَثر العلماء على الناس في حفظ دمائهم وأعراضهم وأنفسهم، واستقرار حياتهم ومعاشهم، ولذلك لا تعجب من قول الإمام أحمد بن حنبل: «الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأنَّ الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه»[١].

ولا سبيل للعلم إلا بالعلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء والأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم.

ولذلك فإنَّ أثر العلم والعلماء على الناس أثرٌ مباركٌ، وهم كالغيث ينفع الله تعالى بهم العبادَ والبلادَ.

وانظر في المقابل أثر الجهل، فإن هذا العَابد لما قال له: ليس لك توبة، ازداد في جرمه وغيه فقتل حتى هذا الذي أفتاه، واستمر على فعله، فالجهل سبب للشر والبلاء والفتنة.

قال العينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه: فضل العالم على العابد؛ لأنَّ الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة، فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير، وأمَّا الثاني فَغلب عليه العلم فأفتاه بالصَّواب ودلَّه على طريق النجاة»[٢].

وما نراه اليوم من وقوع بعض الفتن في بلاد المسلمين، من أسبابه الظاهرة القوية الجهل بأحكام الشريعة.

ولذلك تجد أنَّ من يعتدي على الأنفس اليوم، وينتهك حرمات

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠).

(٢) «عمدة القاري» (١٦/ ٥٦).

المسلمين باسم الدِّين أُتوا من جهلهم؛ كالخوارج الذين يأخذون بظواهر النصوص، فيقولون بقول خير البرية، ولكنهم لا يفقهون العلم الصحيح، فهم سفهاء الأحلام، فليس عندهم من السِّن ما يمنعهم، ثم هم يفتكون في الناس من باب الجهل بأحكامِ هذه الشريعةِ وما جاءت به.

فالجهل أثره سيءٌ وله من المفاسد والمضار على العباد والبلاد ما هو ظاهر بين، ومن ذلك ما جاء في هذا الحديث من أن هذا القاتل استمر في هذا الجرم، وسبب ذلك أنه سأل هذا الجاهل عن الحكم فأفتاه على غير الوجه الصحيح، ولذلك استمر هذا الشر والبلاء في المجتمع.

فالجَهْلُ أَصْلُ ضَلَالِ الخَلْقِ قاطِبَةً وأصْلُ شَقْوَتِهِمْ طُرًّا وظُلْمِهِمِ
والعِلْمُ أصْلُ هُداهُمْ مَعْ سَعادَتِهِمْ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقى ذَوُو الحِكَمِ[1]

الفائدة الثالثة: أنَّ البيئة المباركة تعين على الخير، وفي المقابل البيئة السيئة تعين على الشر، ولذلك دلَّه هذا العالمُ أن ينطلق إلى بلد كذا وكذا فيعبد الله معهم حتى لا يستمر في غيِّه وباطله.

وهكذا التائب من الذنب الذي يكون من مسببات وقوعه في المعصية من يعينه على ذلك أن يهجر هؤلاء الذين يعينونه ويذكرونه على الشرِّ.

الفائدة الرابعة: أنَّه سعى للخير، وهَجَر بلده وذهب، وهكذا التائب من الذنب، والذي يريد الخير لا بدَّ أن يسعى له، وهذا سأل وبحث عمن يعينه على ترك هذا الشر الذي هو واقع فيه.

(١) البيتان للشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ، ينظر: المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية.

وعلى المسلم إذا ابتلي بفتنة أو معصية ألَّا يستسلم لها، وأن يسعى ويجاهد نفسه فيما يخلِّصه منها؛ سواء بمجاهدة نفسه بتركها بنفسه، أو من خلال سؤال العلماء والاستعانة بأهل الخير في أن يحملوه على الخير وترك الشر.

الفائدة الخامسة: فضل التوبة، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ومعلوم أنَّ قتلَ النفس من الكبائر العظيمة، ومن الموبقات التي قرنها الله تعالى بالشرك به، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفُرقان: ٦٨]، فجاءت هذه الجريمة البشعة بعد الشرك الذي هو أعظم ذنب عُصِيَ به الله تعالى، ومع ذلك فإن تاب القاتل تاب الله عليه، وهذا هو قولُ جمهور أهل العلم أن القاتل له توبة،(١) ولو قتل مئة نفس.

والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفُرقان: ٧٠].

وتبديل السيئات بالحسنات أثر هذا العمل الصالح الذي هو التوبة.

ولذلك جاء في كثير من آيات كتاب الله تعالى وفي السنة النبوية الحث على التوبة.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التّحريم: ٨].

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» (٢/٨٣): «والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أنَّ القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عَزَّ وَجَلَّ، فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحًا، بدَّل الله سيئاته حسنات، وعوَّض المقتول من ظَلامته وأرضاه عن طِلابته».

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمرَ بالتَّوبة وهي فرض على الأعيان في كلِّ الأحوال وكل الأزمان»(١)، وقد سمَّاها ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: وظيفة العمر(٢).

وعن الأغر بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيُّها الناس، توبوا إلى الله واستغفروه، فإنِّي أتوب إلى الله وأستغفره في كل يوم مائة مرة**»(٣).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «**لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده**»(٤).

وحقيقة التوبة: الرجوعُ إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب(٥).

أسأل الله أن يوفقنا للتوبة النصوح، وأن يتقبل منا أعمالنا، وأن يغفر لنا زللنا وخطأنا.

(١) «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٧).
(٢) «لطائف المعارف» (ص٣٣٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).
(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٣).

العمل بالعلم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ من أعظم ثمار العلم: العمل، ولا شك أنه لا يكون العمل إلا بعلم، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمَّد: ١٩].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الصحيح: (بابٌ: العلم قبل القول والعمل، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فَبَدَأَ بِالعِلْمِ)، ومعنى كلام البخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ العلم هو أساس الدِّين، وأنَّ أشرفَ العلم: العِلمُ بالله وبرسوله ﷺ، وبأمور الدين الاعتقادية والعملية.

فأراد رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الشيء يُعلم أولاً، ثم يُقال ويُعمل به، فالعِلم مقدَّم عليهما بالذات، وكذا مقدَّمٌ عليهما بالشَّرف، لأنَّه عمل القلب، وهو أشرف أعضاء البدن. وأنَّ العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنَّه مصحِّح النية المصحِّحة للعمل، فنبَّه البُخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: إن العلم لا يفيد إلا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه[١].

ولذا لمَّا سئل سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ عن فضل العلم فقال: «ألم

(١) **ينظر**: «فتح الباري» (١/ ١٦٠)، «عمدة القاري» (٢/ ٣٩).

تسمع قولَه تعالى حين بدأ بـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، فأمرَ بالعَمل بعد العِلم»[١].

ولكن المرء إذا علم فلا بد له من عمل، وإلا كان العلمُ حجةً عليه لا له، وما كان العلم إلا ليعمل به.

وهذا التلازم كان ظاهرًا في حياة صحابة النَّبي ﷺ، يتلقَّون العلم من كتاب الله تعالى وسنة النَّبي ﷺ، ثم يعملون به ويداومون عليه، وفي هذا أمثلة ونماذج ناصعة في سيرة صحابة النَّبي ﷺ في هذا الأمر:

المثال الأول: عن ابن أعبد قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أخبرك عني وعن فاطمة؟ كانت ابنة رسول الله ﷺ، من أكرم أهله عليه، وكانت زوجتي، فجرت بالرحى حتى أثَّر الرحى بيدها، واستقت بالقربة حتى أثَّرت القربة بنحرها، وقمَّت البيت حتى اغبرَّت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دنَّست ثيابها، فأصابها من ذلك ضرٌّ، فقدم على رسول الله ﷺ سبي أو خدم، قال: فقلت لها: انطلقي إلى رسول الله ﷺ فاسأليه خادمًا يقيك حرَّ ما أنت فيه، فانطلقتْ إلى رسول الله ﷺ فلم تجده ولقيت عائشة، فأخبرتها فلما جاء النبي ﷺ، أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها، فجاء النبي ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم فقال النبي ﷺ: «**على مكانكما**»، فقعد بيننا حتى وجدتُ بردَ قدمه على صدري، ثم قال: «**ألا أعلمكما خيرًا مما سألتما، إذا أخذتما مضاجعكما، أن تكبرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحاه ثلاثًا وثلاثين، وتحمداه ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**».[٢]

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٦١)، ومسلم (٢٧٢٧)، وأحمد (١٣١٣)، واللفظ له ولمسلم.

يقول علي ﷺ: «فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ». حتى قال ابن الكواء[١] -وهو من أهل العراق وعلي ﷺ يحدث بهذا الحديث وقد ولي الخلافة - : يا أمير المؤمنين، ولا ليلة صفين[٢]؟ فقال: «قاتلكم الله يا أهل العراق، ولا ليلة صفين». يعني حتى في هذه الليلة العصيبة لم ينسَ هذا الذكر.

المثال الثاني: عمر بن أبي سلمة ﷺ كان في حَجْر[٣] النَّبي ﷺ، وكان غلامًا تطيش يده في الصحفة أي تميل وتتحرك ولا تقتصر على موضع واحد، فقال له النَّبي ﷺ: «**يا غلام، سمِّ اللهَ، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مِمَّا يليك**»، يقول: فما زالت تلك طعمتي بعدُ[٤]، يعني طريقة أكلي، حتى صارت عادة لي.

فالعلم أساسه وثمرته ومراده ومقصده هو العمل.

ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤]، غمَّت أصحاب رسول الله ﷺ غَمًّا شديدًا، ودخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، وقالوا: يا رسول الله: هلكنا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا، وبما نعمل، فأمَّا قلوبنا فليست بأيدينا، فقال النَّبي ﷺ: «**قولوا: سمعنا وأطعنا وسلَّمنا**»، فألقى الله

---

(١) عبد الله بن الكوَّاء، من رؤوس الخوارج. وله أخبار كثيرة مع علي ﷺ، وكان يلزمه ويعنته في الأسئلة، وقد رجع عن مذهب الخوارج وعاود صحبة علي ﷺ .**ينظر**: «لسان الميزان» (٤/ ٥٤٩). وقد ورد أنَّ غيره قد سأل عليٌّ ﷺ. ينظر: «فتح الباري» (١١/ ١٢٢).

(٢) وهي المعركة التي كانت بين جيشي علي ومعاوية ﷺ.

(٣) بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم، أي في تربيته وتحت نظره، وأنَّه يربيه في حضنه تربية الولد.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٧٦).

الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥-٢٨٦][(١)].

فعلى المسلم إذا تعلم العلم أن يكون في نيته وفي مراده وفي قصده وفي تطبيقه وواقعه العملُ بما علم، بهذا يحقق المقصد من العلم، فإن العلم وحده لا ينفع كما أن العمل بلا علم لا ينفع، فما نفع اليهود علمهم: علموا فما عملوا، والنَّصارى عملوا ولكن بدون علم، وأهل الإسلام الذين هم على الصراط المستقيم علموا فعملوا.

فالعلم والعمل بمقتضى العلم أمران لا ينفكَّان عن بعضهما، كما قيل: العلم والد والعمل مولود.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لقيت مشايخ، أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته: العاملَ منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه»[(٢)].

ومن تصانيف الخطيب البغدادي رحمه الله التي ينبغي أن يطالعها المتعلم كتابه الجليل: (اقتضاء العلم العمل).

أسأل الله أن يوفقنا للعلم النافع، والعمل الصالح، وصلى الله على نبينا محمد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦)، وأحمد (٢٠٧٠).

(٢) «صيد الخاطر» (ص١٥٨).

محبة الله للعبد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ التَّألُّه والتعبد لله يجمع أمورًا ثلاثة: المحبة والرجاء والخشية، فإذا تمَّت في قلب المرء تمَّ له إيمانه.

ولذا جاء عن بعض السلف قولهم: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد»(١).

وقال يحيى بن معاذ الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان ثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة، وفي جوف الخوف ترك الذنوب، وفيه النجاة من النار، وفي جوف الرجاء الطاعة، وفيه وجوب الجنة، وفي جوف المحبة احتمال المكروهات و به تجد رضا الله عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

وإن من أعظم ثمار الإيمان بالله تعالى: حصول محبة الله تعالى

---

(١) **ينظر:** «التحفة العراقية» (ص٧٥)، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨١)، ونسبها الغزالي في «إحياء علوم الدين» والسبكي في «فتاويه» لمكحول. وهو أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الشامي، تابعي، فقيه، عالمٌ جمع علم مصر والعراق والشام، واستوطن دمشق فلذلك يقال له: فقيه الشام.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٢)، ويحيى بن معاذ قال عنه الذهبي: «من كبار المشايخ، وله كلام جيد» «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ١٥).

لعبده، وهذه مرتبة عظيمة ودرجة عالية، إذا حصل عليها العبد كانت سعادته في الدنيا والآخرة، ولذلك قال النَّبي ﷺ يوم خيبر: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**»(١).

وأصلُ التوحيد إخلاصُ المحبَّة لله وحدَه، ولا يتمُّ حتى تكمل محبَّةُ العبد لربه، وتسبق محبَّته جميع المحابِّ، ومنشأ الشِّرك وأصلُه من التَّشريك فيها.

وقد امتدح الله عباده المُؤمنين بإخلاص المحبَّة له، كما أنه سبحانه ذمَّ المُشركين بالتنديد فيها، فقال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

وجعلها أخصَّ خصال أوليائه فقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤].

والمحبَّة صفة من صفات الله الفعلية التي تتعلق بأفعاله: إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها.

وهذه الصفة العظيمة أن يكون العبدُ ممن يحبه الله، لا شك أنَّها درجة يسعى العبد المؤمن إلى نيلها وتحصيلها، وهذه المحبة التي تحصل للعبد يسعد بها في دنياه وأخراه.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **عشرة أسباب جالبة لمحبة الله تعالى جِماعها: الإيمان بالله والعمل الصالح:**

أحدُها: قراءةُ القرآن بالتدبر والتفهّم لمعانيه وما أُريدَ به، كتدبر الكتابِ الذي يحفظه العبدُ ويشرحه؛ ليتفهَّم مُرادَ صاحبه منه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٤).

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبيَّة بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكْر الله على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبُ العبد من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثارُ محابّ الله على محابّك عند غلَبَات الهوى.، والتسَنُّمُ إلى محابّه وإن صَعُبَ المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسماء اللهِ وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها؛ فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالة.

السادس: مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ﷻ ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكُلِّيته بين يدي الله تعالى.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدبِ العبودية بين يديهِ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسةُ المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايبَ الثمر، ولا تتكلَّم إلا إذا ترجَّحتْ مصلحة الكلام، وعلمتَ أنَّ فيه مزيدًا لحالك ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدةُ كلِّ سببٍ يحولُ بينَ القلب وبينَ اللهِ ﷻ[1].

---

(١) **ينظر**: «مدارج السالكين» (٣/ ١٨).

فهذه الأسباب الجالبة لمحبة الله جمَّاعها: الإيمان بالله والعمل الصالح.

وحبُّه ﷻ ليس كحبِّ المخلوق، بل هو حبٌّ يليق بجلاله وعظمته، فكما أنَّ ذاته سبحانه ليست كذاتِ المخلوق، فكذلك صفاته ليست كصفات المخلوق، وحب الله ثابتٌ بالكتاب والسنة، لا نعرف كيفيتَه، ولكن نُدرِك أثره.

فمن آثار محبة اللهِ للعبد: أن يوضع له القبول في الأرضِ، وأن يحبه من في السماء ومن في الأرض.

أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال: «**إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض**»[(١)].

ولذلك قال الله تعالى عن أهل الإيمان الذين يعملون الصالحات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مَريَم: ٩٦]، فيودهم ويحبهم الناس، وهذا من رحمة الله تعالى بالعبد أنه إذا أحبه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ له. والترمذي (٣١٦١)، وفيه: «**إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إني قد أحببت فلانًا فأحبه**»، **قال: «فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مَريَم: ٩٦]».

وضع له القبول والمحبة في قلوب عباده المؤمنين، فيجعل لهم الرحمن ودًا ومحبة وقبول، وذلك لمن آمن بالله وعمل صالحًا.(١)

ومن آثار محبَّة الله للعبد: أن يسدد ظاهره وباطنه.

أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عَبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»(٢).

ولذلك فإنَّ الطريق واضح، والسبيل بيِّن، وهو أنَّ الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، والإكثار من الأعمالِ الصالحات من أسباب حصول العبد لمحبة الله تعالى، وتحقيقِ الثمار بذلك.

ولذلك فإنَّ على المسلم أن ينظر في حاله، وأن يتهم نفسه، وأن يعلم أن الانشغال بعيوب النفس خيرٌ من الانشغال بعيوب الناس، وأنَّ الإنسان أول ما يُصْلح يُصْلح نفسه، وانظر إلى عيوب نفسك، واسْعَ في إصلاحها، وإقامتها على الحقِّ، فإنَّ ذلك من أعظم أسباب الخير للعبد في الدنيا والآخرة.

أمَّا إذا انشغل بعيوب الآخرين، وهو في عيوبه، وفي عطبه، فإنَّ ذلك من علاماتِ الهلاك.

---

(١) **ينظر**: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٧).

(٢) البخاري (٦٥٠٢).

أخرج ابنُ حبَّان عن أبي هريرة ﵁ أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**يبصر أحدكم القذى في عين أخيه، وينسى الجذع - أو قال الجذل - في عينيه**»[(١)].

قال ابن القيم ﵀: «ومن العجبِ أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعبُ عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجلَ يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول»[(٢)].

والموفَّق من وفقه الله، واشتغل بإصلاح نفسه، وأَطرها على الحق، وحملها على الخير بعمل الصالحات، وترك المعاصي والمنكرات، والإكثار من التوبة والاستغفار، مع حمل النفس على عمل كل ما يرضي الله تعالى.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٧٦١)، وابن المبارك في «الزهد» (٢١٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٣٣٧) مرفوعًا، وأخرجه أحمد في «الزهد» (٩٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٢) موقوفًا على أبي هريرة ﵁. **والجذل**: الخشبة الكبيرة.

(٢) «الجواب الكافي» (ص١٥٩).

الجزاء من جنس العمل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن من الأمور المتقررة في شرعنا: أنَّ الجزاء من جنس العمل في الخير والشر، وهي قاعدة عظيمة في هذه الشريعة(١).

ولو وضعها الإنسان نصب عينيه لزجرته عن كثير من الشرور والمعاصي، ولدفعته إلى بذل الخير والإحسان إلى الخلق.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ لك ذنوبًا بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرَّد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوقَ ما تؤمله فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أوْلاكَ وأجْدَرَك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم؛ ليعاملك الله هذه المعاملة، **فإن الجزاء من جنس العمل**، فكما تعمل مع النَّاس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقًا فانتقم بعد ذلك أو اعف، وأحسن أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك. فمن تصور هذا المعنى وشَغَل به فكره هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه»(٢).

---

(١) **ينظر**: «جلاء الأفهام» (ص١٦٤)، «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص٣١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٤).

وهذه القاعدة من تمام عدل الله وحكمته ﷻ.

وقد تكاثرت النصوص الشرعية في التأكيد على هذه القاعدة العظيمة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالوا: وقد دلَّ الكتاب والسنة في أكثر من مائة موضع على أنَّ **الجزاء من جنس العمل** في الخير والشر كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النَّبَإ: ٢٦]، أي: وفق أعمالهم، وهذا ثابت شرعًا وقدرًا»[١].

ومن ذلك:

١ – قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرَّحمٰن: ٦٠]، هذا في مقابلة الجزاء الحسن بالعمل الحسن، أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسَنَ إليه في الآخرة.

وفي مقابلة الجزاء السيء بالعمل السيء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الـرُّوم: ١٠]، ﴿عَٰقِبَةُ﴾ أي آخر أمر ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ [النَّجْم: ٣١] أي عملوا السيئات ﴿ٱلسَّوِيِّ﴾ [طه: ١٣٥] تأنيث الأسوأ، وهي أسوأُ العقوبات وأفظعها التي هي العقوبةُ بالنارِ، **جزاء لهم بجنس عملهم**[٢].

٢ – قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه معنى المجازاة فلذلك جُزِم»[٣]. فالجزاء من جنس العمل.

---

(١) «تهذيب السنن» (٦/ ٣٣٦).

(٢) **ينظر**: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» (١٥/ ٥٣)، «تفسير أبي السعود» (٧/ ٥٣).

(٣) «تفسير القرطبي» (٢/ ١٧١).

٣ - قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالآيات كما أتته ولم يذكرها بل أعرض عنها - وإن كان شاعرًا بها - **فكان الجزاء من جنس العمل** لا يذكر بما يذكر به المؤمنون من الجزاءِ بالحسنى، بل ينسى فلا يذكر هذا الذكر وإن كان معلومًا لله لا يجوز أن يكون مجهولاً له»[(١)].

٤ - قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ [المجادلة: ١١].

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وذلك أن **الجزاءَ من جنس العمل**»[(٢)].

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ [الحشر: ١٩].

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن **الجزاءَ من جنس العمل**»[(٣)].

٦ - قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقِعَة: ١٠-١١].

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، **فإن الجزاءَ من جنس العمل**، وكما تدين تدان»[(٤)].

٧ - قول النَّبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه**

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٨/ ٤٣٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٧).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٧).

إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[(١)].

فالله تعالى يذكر من ذكره، فإن ذكره في نفسه، ذكره الله تعالى في نفسه، وإن ذكره في ملأ ذكره الله تعالى في ملأ خير منه.

والله تعالى يجازي بالعمل الذي يعمله الإنسان بأفضل وأحسن مما يعمل؛ لأن الله تعالى هو الكريم الجواد المتفضل سبحانه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والربُّ تعالى أحبَّه لما قام بمحبوب الحق، **فإنَّ الجزاء من جنس العمل**، فلمَّا لم يزل متقربًا إلى الحق بما يحبه من النوافل بعد الفرائض أحبَّه الحقُّ، فإنه استفرغ وُسْعه في محبوب الحق، فصار الحقُّ يحبه المحبة التَّامة التي لا يصل إليها من هو دونه في التقرب إلى الحقِّ بمحبوباته؛ حتى صار يعلم بالحق، ويعمل بالحق، فصار به يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي»[(٢)].

وهذا فيه دلالة على أن من أقبل على الله أقبل الله عليه بأكبر مما أقبل عليه العبد.

وأيضًا فإن الله تعالى كريم يحب الكرم، والله تعالى يجازي على الكرم بالخير والثواب الحسن.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٣٩).

٨ - قول النبي ﷺ: «**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته. حلت له شفاعتي يوم القيامة**»(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فقد رغَّب المسلمين في أن يسألوا الله له الوسيلة، وبيَّن أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرًا، **فإن الجزاء من جنس العمل**»(٢)

٩ - قول النبي ﷺ: «**من استمع إلى حديثِ قوم وهم له كارهون، صُبَّ في أُذنيهِ الآنُك**»(٣)، أي من استمع إلى حديثِ قومٍ وهم لا يريدون استماعه أو يكرهون استماعه، أما من استمع لحديث أهل الفساد ليحترز من شرهم فلا يدخل تحته.

قال ابن حجر رحمه الله: «أمَّا الوعيد على ذلك بصبِّ الآنكِ في أذنه **فمن الجزاءِ من جنس العمل**»(٤).

١٠- قال النبي ﷺ: «**من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة،**

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص٧٣) .**وينظر**: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٠٠)، (١/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٥٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٣٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وصححه ابن دقيق العيد في «الاقتراح» (ص١٠٧)، والألباني في «صحيح الجامع» (ح٦٠٢٨)، **والآنُك**: - بالمَدِّ وضَمِّ النُّون بعدها كاف - الرصاصُ المذاب، وقيل: خالص الرصاص، وقيل: القصدير.

(٤) «فتح الباري» (١٢/ ٤٢٩).

ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[١].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحديث حض على التعاون وحسن التعاشر والألفة، وفيه **أنَّ المجازاة تقع من جنس الطاعات»**[٢].

١١- قال النبي ﷺ: «**حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله** عَزَّوَجَلَّ: **نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»**[٣].

فهذا العبد قد وضع الله عنه وتجاوز عن ذنوبه؛ لأنه كان يتجاوز عن عباد الله تعالى.

قال ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعادة **أنَّ الجزاء مِن جِنس العمل** ثوابًا وعقابًا، كالتَّنْفيس بالتَّنْفيس، واليُسر باليُسْر، والعون بالعون، كما ذكر في هذا الحديث، ونظائره كثيرة في أحكام الدنيا والآخرة»[٤].

فلذلك؛ فإن العبد ينظر إلى مكافأة الله له بأحسن ممَّا عمل، وإن العبد كلما أحسن في عمل أحسن الله عليه من جنس عمله، لكن بأكثر وأفضل وأحسن؛ لأن المنعم الذي جازى هو الله تعالى، ولذلك يجازي في الحسنة بعشر أمثالها وفي السيئة بمثلها، ويغفر جلا جلاله، فأنت تتعامل مع الغني الجواد المتفضل.

فأحسن - يا عبد الله - يحسن إليك وأصلح عملك وأخلاقك

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «فتح الباري» (٥/ ٩٧)، **وينظر**: «عمدة القاري» (١٢/ ٢٨٨)، «إكمال المعلم» (٨/ ٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٦١)، عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) «المعين على تفهم الأربعين» (ص٤٠٧).

وسلوكك تجد الأثر البالغ في صلاح شأنك، وصلاح أمرك، وصلاح نيتك، وصلاح ذريتك، فكلَّما أحسنت مع الناس يحسنُ الله تعالى إليك، وكلَّما صدقت مع الناس صدقك الله تعالى، وصدقك عند الناس، وإذا بررت إلى الناس أبر الله بك، وحبب إليك خلقه.

فإن المسلم ينظر وهو في تعامله أنه ليس بمنأى عن المحاسبة والجزاء من الله تعالى، والجزاء يكونُ من جنس العمل فـ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرَّحمٰن: ٦٠]، وإن عملت غير ذلك فإنَّ: ﴿عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرُّوم: ١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم إنَّ الغيَّ اذا كان اسمًا لعمل الشرِّ الذي يضر صاحبه فإنَّ عاقبة العمل أيضًا تسمى غيًا، كما أنَّ عاقبة الخير تسمى رشدًا، كما تسمى عاقبة الشر شرًا وعاقبة الخير خيرًا، وعاقبة الحسنات حسنات، وعاقبة السيئات سيئات، فالحسنات والسيئات في كتاب الله يراد بها أعمال الخير وأعمال الشر، كما يراد بها النِّعم والمصائب والجزاء من جنس العمل، فمن عمل خيرًا وحسنات لقي خيرًا وحسنات، ومن عمل شرًا وسيئات لقي شرًا وسيئات»[(١)].

هكذا الإنسان ينظر إلى ما قدمت يداه وإلى ما عملت نفسه، فإنه مجزي عنه إن حسن فحسن، وإن سيئًا فسيء.

نسأل الله أن يعاملنا بعفوه وكرمه، ولطفه، وأن يستر عيوبنا، وأن يصلح نياتنا وأعمالنا.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٧٠).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ من أعظم الواجبات ومن أجل المطلوبات: ما فرضه الله تعالى على عباده من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى في ذكر وصية لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

وامتدح الله تعالى هذه الأمة، ووصفها بالخيرية؛ لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

وجعل الله تعالى من أخص خصائص أهل الإيمان أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبَة: ٧١].

ومن خصائص هذه الأمةِ أنَّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأَمَرَ الله تعالى عباده بذلك فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤].

بل جعل الله تعالى من صفات أهل الكتاب الذين امتدحهم الله تعالى ببعض صفاتهم أنهم يأمرون بالمعروف.

قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ﴾ [آل عِمرَان: ١١٣-١١٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها»(١).

ولذلك فإن التهاون في هذه الشعيرة، وفي هذا الأمر العظيم من أسباب سخط الله تعالى ومقته.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾ [المَائدة: ٧٨-٧٩].

ولذلك فإن من مقتضيات الإيمان: أن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»(٢).

فلا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يأمر بالمعروف؛ بقدر الاستطاعة: إمَّا

(١) «الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

باليد إن كان من أصحاب السلطة والقدرة، وإمَّا باللسانِ، وإمَّا بالقلب عند العجز عن اللسان.

وما ذاك إلا أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قطب الدِّين الأعظم، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين؛ فما أرسلت الرسل إلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [هو] الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، ووصف به هذه الأمة، وفضَّلها لأجله على سائر الأمم التي أخرجت للنَّاس»(١).

فالدِّين قائم بهذا الأمر العظيم، فالدِّين إمَّا واجبات فيؤمر بها، وإمَّا منهيات فينهى عنها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكلُّ بني آدم لا تتمُّ مصلحتهم لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتَّعاون والتَّناصر، فالتَّعاون والتَّناصر على جلب منافعهم، والتَّناصر لدفع مضارِّهم، ولهذا يُقال الإنسان مدنيٌّ بالطَّبع، فإذا اجتمعوا فلا بُدَّ لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة آمرٍ وناهٍ»(٢).

---

(١) «الطرق الحكمية» (ص١٩٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٢).

وعبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها أثر عظيم في تحقيق الأمن الشامل في المجتمعات، والذي يتحقق به لأفراد المجتمع أمنهم على الضرورات الخمس وهي: الدِّين، والنَّفس، والنَّسب، والمال، والعقل، وهي الضَّرورات التي أتت كلُّ أدلة الكتاب والسنة وأحكامها وحدودها لتحقيقها والقيام بها وحمايته(١).

ومن مقتضى الولاية والأخوةِ الإيمانية: أنَّ المؤمن إذا وجد أخاه على شيء من تقصير في واجب أو فعل محرم، أن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر.

وكذلك يكون حالُ الإنسان مع من هم تحتَ يده من أولاده وزوجه.

وكذلك مع زملائهِ وجيرانه وإخوانه من المسلمين.

يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعلم أن ذلك من الواجبات المتحتمات، وليس من الأمور المكملات، بل إنَّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور التي تستوجب غضَب الله تعالى ومقته.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والثواب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منه في التسبيح والتهليل؛ لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وقد يتعيَّن، ولا يتصوَّر وقوعه نفلاً، والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل، ومعلوم أنَّ أجر الفرض أكثر من أجر النَّوافل»(٢).

وعلى المؤمن وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون دافعه

(١) للتوسع في هذا ينظر كتابنا: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثره في تحقيق الأمن في المجتمع».

(٢) «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٩٢).

إلى ذلك الرغبة في تغيير المنكر وإظهار المعروف قيامًا بحق الله تعالى، ورحمة بإخوانه ورغبة في صرفهم عن الشر بالطريق الشرعي المناسب.

وما أجمل ما قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارةً يحملُ عليه رجاءَ ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النَّصيحة للمؤمنين، والرحمة لهم، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التَّعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارة يحملُ عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته»[(١)].

وعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن رفيقًا في أمره ونهيه.

ومن أعظم صفات محمد ﷺ أنه رفيق بأمته، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، صلى الله وسلم وبارك عليه.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ «الرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».[(٢)]

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفِقْهُ قَبل الأمرِ، والرِّفقُ عندَ الأمْرِ، والحِلمُ بَعدَ الأمْر».[(٣)]

وقد سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر كيف ينبغي أن يأمر؟ قال: «يأمر بالرفق والخضوع. ثم قال: إنْ أَسْمعوه

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٥٥).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٣٦).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٧).

ما يَكْره لا يَغْضبْ؛ فيكون يُريد يَنتصر لِنَفْسه».[١]

فالرحمة بالخلق والرفق بهم مما جاءت به الشريعة، فعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أيًا كان ممن فوَّضهم ولي الأمر، أو الأب في بيته، أو المسلم عندما يرى من المنكر ما يُفعل، أو يَرى من الواجبات ما تُرك أن يكون ذلك بالرفق واللين؛ لأن ذلك أدعى لقبول دعوته وأمره ونهيه.

قال شيخُنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالواجب على المسلمين، ولا سيما العلماء، والأمراء والأعيان أن يأمروا بالمعروف، وأن ينهوا عن المنكر، وهكذا يجب على النساء، ولا سيما من لها أمر ولها قدرة، فإن هذا متعين على الجميع، تأمر أهل بيتها، تأمر بناتها، خدمها، تأمر أخواتها، تأمر من ترى يقع منه منكر، تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، حتى تأمر الرجال، كما أن الرجل يأمر المرأة بالمعروف، وينهاها عن المنكر، كذلك المرأة تأمر الرجل؛ زوجها وأخاها وابنها وغيرهم، تأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، هذا واجب على الجميع، لكن بالكلام الطيب، والأسلوب الحسن، الذي يرغب في الحق، ويسبب قبوله، ولا ينبغي الشدة في هذا؛ لأنها قد تنفر من قبول الحق فالآمر والناهي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بالأسلوب الحسن، والكلمات المناسبة، التي تدعو إلى قبول الحق، وترغب في الخضوع للاستجابة»[٢].

وعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يحاسب نفسه، وأن يجعل من نفسه قدوة لغيره، فيأمر بالمعروف ويأتيه، وينهى عن المنكر

---

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (ص٢٨).

(٢) «فتاوى نور على الدرب» (١٨/ ٣٣٠).

ولا يأتيه، فإن ذلك من أعظم ما يعين على قبول أمره وقبول نهيه.

أخرج الشيخان من حديث أسامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»**.(١)

فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر قدوة وأسوة، ولا بد أن يكون أول ما يأمر وينهى نفسه، يأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، يصلح حال نفسه ويتقي ربه؛ فإنَّ ذلك من أعظم أسباب قبول دعوته ونجاته في الدنيا والآخرة، وليس من شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الإنسان لا يفعل معصية؛

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطْ ... وَمَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَطْ؟!

لكنَّ المطلوب أنَّ الإنسان إذا وقع في شيء تاب إلى ربه وأناب واستغفر، ويحمل نفسه على الخير ويحذِّرها من الشر، فأبواب الخير الذي يأمر الناس بها يأتيها وأبواب الشر التي يحذِّر منها يجتنبها هذا من أعظم صفات أهل التقوى أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) «البخاري» (٣٢٦٧)، و«مسلم» (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

الحياء من اللّه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن من أعظم خصالِ الإيمان: الحياءَ، وهو رأس الأخلاق وزينتها، ودليل على بقيتها، وهو خُلُقُ الإسلام؛ كما جاء في الحديث عنه ﷺ: «**إِنَّ لكلِّ دينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الإِسلام الحيَاءُ**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «الحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمى حيا - بالقصر - لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة، وبين الذُّنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكلٌّ منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثًا، ومن استحى من الله عند معصيته، استحى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستح من معصيته لم يستح الله من عقوبته»(٢).

وقد قال النَّبي ﷺ: «**الحياء من الإيمان**»(٣).

وقال ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**»(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١)، والطبراني في المعجم الأوسط (١٧٥٨)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩٨)، وحسنه الألباني.

(٢) «الجواب الكافي» (ص٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦). من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلَّا بخير**»(١).

فالحياء خير كله، ولا يأتي إلا بالخير، ولذلك فهو من شعب الإيمان، والتحلي به مما يقرب العبدَ إلى ربه تعالى.

وأعظم الحياء: الحياء من الله تعالى، أن تستحي من ربك تعالى، فلا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، فإنَّ ذلك من الحياء من الله سبحانه وتعالى.

قال ابنُ رجب رحمه الله: «واعلم أنَّ الحياء نوعان: **أحدهما**: ما كان خَلْقاً وجِبِلَّةً غيرَ مكتسب، وهو من أجلِّ الأخلاق التي يَمْنَحُها الله العبدَ ويَجبِلُه عليها، ولهذا قال ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلَّا بخير**»، فإنَّه يكفُّ عن ارتكاب القبائح ودناءةِ الأخلاق، ويحثُّ على استعمالِ مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو مِنْ خصالِ الإيمان بهذا الاعتبار ....**والثاني**: ما كان مكتسباً من معرفة اللهِ، ومعرفة عظمته وقربه من عباده، واطلاعه عليهم، وعلمِه بخائنة الأعين وما تُخفي الصدور، فهذا من أعلى خصالِ الإيمان، بل هو مِنْ أعلى درجات الإحسّان»(٢).

روى الترمذي من حديثِ ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**استحيوا من الله حق الحياء**». قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: «**ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٠١).

(٣) الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه ابن القطان في «الوهم والإيهام» (٤/ ٤٥٢)، والنووي في «المجموع» (٥/ ١٠٥).

فحق الإنسان إذا همَّ بقبيح أن يتصور أجلَّ من في نفسه حتى كأنه يراه، فالإنسان يستحي ممن يكْبُر في نفسِه؛ ولذلك لا يستحي من الحَيوان ولا من الأطفال، ولا من الذين لا يميزون، ويستحي من العَالم أكثر مما يستحي من الجَاهل، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد.

والذين يَستحي منهم الإنسان ثلاثة:

البشر: وهم أكثر من يستحي منه، **ثم نفسه، ثم اللَّه** ﷻ:

ومن استحيا من الناس ولم يستحِ من نفسه فنفسه عنده أخس من غيره.

ومن استحيا منهما ولم يستحِ من اللَّه فلعدم معرفته بالله ﷻ، فإن الإنسان يستحي ممن يعظمه ويعلم أنه يراه أو يسمع نجواه فيبكته، ومن لا يعرف اللَّه فكيف يستعظمه، وكيف يعلم أنه مطلع عليه[1].

والحياءُ من الله تعالى: أن يحفظ المرءُ رأسه وما وعى من سمع وبصر ولسان، فلا ينظر ولا يتكلم ولا يسمع إلا بما يرضي الله تعالى، فلا يُطلق بصره ولا سمعه ولا لسانه في المحارمِ، فإنَّ حِفْظَ الرأس وما وعاه من سمع وبصر ولسان وعقل عما يغضبَ الله تعالى من الحياء من الله.

وأن يحفظ بطنه، فلا يدخل إليه حرامًا، فإن ذلك من الحياء من الله تعالى، فإذا دعتك النفس إلى مطمع من مطامع الدنيا، أو باب من أبواب الحرام من مأكل أو مشرب، فتذكر الله تعالى واستحي منه، فمن حفظ بطنه من أن ينزل إليه ما يغضب الله تعالى، فهذا هو الحياء من الله.

---

(١) **ينظر**: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص٢٠٨).

ويجب على المرء أن يذكر الموت، وأن يعلم أنه إلى الآخرة صائر، وأن الموت لا شك بك نازلٌ، وأن هذه الحياةَ مرحلةُ عملٍ، وغدًا حساب على ما عملت، فإذا تذكر الإنسان أنه من هذه الدنيا منتقل، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبيَاء: ٣٥]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٦]، فإنه يبعد عمَّا يغضب الله تعالى، ويتحلى بطاعته سبحانه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحياء من الله - وهو أول شواهد المعرفة - وهو نور يقع في القلب، يريه ذلك النور أنه واقف بين يدي ربه ﷻ، فيستحي منه في خلواته، وجلواته، ويُرزق عند ذلك دوام المراقبة للرقيب، ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى، حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سماواته، مستويًا على عرشه، ناظرًا إلى خلقه، سامعا لأصواتهم، مشاهدا لبواطنهم».[1]

اللهم اجعلنا ممن يستحون منك حق الحياء، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٨٠).

الرجاء والخوف من اللّه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «لا يرجو عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخاف إلا ذنبه»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الأثر: «هو من أحسن الكلام، وأبلغه وأتمه»(٢). وقال عنه: «من جواهرِ الكلام»(٣).

فالعبد لا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا من ذنوبه، فإذا اجتمعت هاتان الخصلتان في العبد كان موفقًا.

فيعلم المسلم أنَّ بذل النَّفس في طاعةِ الله ومرضاته أمر مطلوب للرب تعالى من عبده ليكون الدينُ كلُّه لله، فمن رغب بنفسه عن ذلك وآثر مرادها وراحتها وشهوتها على مراد ربه وإقامة دينه وطلب مرضاته فقد عرض نفسه لمقت الله وعقابه وحرم نفسه ما حصل للمؤمنين المتقين من جزيل ثوابه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٠٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٥٤٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٥)، والبيهقي في «المدخل» (٧٩٥)، وغيرهم، وتمامه: «كلمات لو رحلتم المطي فيهن لأنضيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن: لا يرج عبد إلا ربه، ولا يخف إلا ذنبه، ولا يستحيي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحيي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦١).

(٣) «جامع المسائل» المجموعة الأولى(ص١٩٦).

دخل النَّبي ﷺ على شاب وهو في الموت، فقال له: «**كيف تجدك؟**»، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمعت في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف**»(١).

فالعبد ينبغي ألَّا يعلق رجاءه إلا بالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يُونس: ٤٤]؛ بل يخاف أن يجزيه بذنوب.

وإذا عرف أنَّ ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فَاطِر: ٢]، صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده.

فالعبد لا يرجو إلا الله، فلا يرجو في الرَّزق، وفي التوفيق، وفي النفع، وفي الضر، غير الله، ويعلم يقيناً أنه لا يقدر على ذلك إلا الله، ويعلق قلبه بالله تعالى، فإن اللهَ هو الخلاقُ العليم، وهو الذي على كل شيء قدير، وهو الذي بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، فلا يتعلق قلب المرء بمخلوق، وإنما يتعلق بالله تعالى، فيتجرد القلب للوصول إلى الله تعالى.

ومن رجا نصرًا أو رزقًا من غير الله خذله الله.

وليعلم العبدُ: أنَّ من أعظم الأخطار والشرور عليه هي ذنوبه، فيخاف هذه الذنوب، فيكثر من التوبة والاستغفار، والخوف من الله تعالى، فيخاف من شؤم ذنوبه، ومن عاقبة أمرها، وما يحصل للعبد

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، والنسائي (١٠٨٣٤) وغيرهم من حديث أنس رضي الله عنه.

بسببها، من عدم التوفيق والعقوبة وتعسير الأمور، مع ما يكون له من العقاب إن لم يعفو الله عنه يوم القيامة.

والله ﷻ علَّق لحوق المصائب والآفات بهذه الذنوب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشّورىٰ: ٣٠].

وهذا ما فهمه السلف كما روي عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أن كتب لبعض عماله: «عليك بتقوى الله في كلِّ حال ينزل بك؛ فإنَّ تقوى الله أفضل العدَّة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوَّة، ولا تكن في شيءٍ من عداوة عدوِّك أشد احتراسًا لنفسك ومن معك من معاصي الله؛ فإنَّ الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوِّهم، وإنَّما نعادي عدوَّنا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوةٌ بهم؛ لأنَّ عددنا ليس كعددهم، ولا قوَّتنا كقوَّتهم، فإن لا ننصر عليهم بحقِّنا لا نغلبهم بقوَّتنا، ولا تكوننَّ لعداوة أحدٍ من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا أشدَّ تعاهدًا منكم لذنوبكم»[1].

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه، وإن تاب منها، وبكى عليها. وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك! وهذا أمر غائب! ثم لو غفرت؛ بقي الخجل من فعلها.

ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح: أنَّ الناس يأتون إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقولون: اشفع لنا! فيقول: ذنبي، وإلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقول:

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٠٢)، وفيه راوٍ مبهم.

ذنبي، وإلى إبراهيم.. وإلى موسى.. وإلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم. فهؤلاء إذا اعتبرت ذنوبهم؛ لم يكن أكثرها ذنوبًا حقيقة، ثم إن كانت، فقد تابوا منها، واعتذروا، وهم بعد على خوف منها.

ثم إن الخجل بعد قبولِ التوبة لا يرتفع، وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «وا سوأتاه منك، وإن عفوت»! فأفٍّ والله لمختار الذنوب، ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة، لا تزول عن قلب المؤمن، وإن غفر له»[(١)].

فهذه الذنوب إذا خافها العبد أحدث توبة وأوبة وأوجبت انكسارًا وذلاً بين يدي الله، وراقب نفسه، وعمل الأعمال الصالحات، وتجنب السيئات والأعمال التي لا ترضي الله تعالى.

ومن أعظم الدلائلِ على صلاحِ القلوب: خشية الله تعالى في السِّر.

وإذا خلوْتَ بريبةٍ في ظُلمةٍ ... والنَّفسُ دَاعيةٌ إلى الطُّغيَانِ
فَاسْتَحْيِ مِن نَظرِ الإِلهِ وقُلْ لها ... إنَّ الذي خلَقَ الظَّلامَ يَرانِي[(٢)]

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العَلق: ١٤]، فإذا امتلأ قلب العبد بخشية الله تعالى في السر كما يكون في العلانية، فإن ذلك من علامات توفيق الله تعالى للعبد، فيراقب الإنسانُ نفسَه، فكلُّ إنسانٍ خصيمُ نفسه، وليس بينه وبين الله تعالى أحد.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٣٩٥).

(٢) البيتان من النونية المشهورة والمنسوبة للقحطاني، والتي مطلعها:
يا منزل الآيات والفرقان ... بيني وبينك حرمة القرآن

فانظروا إلى أنفسكم، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض على الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٨].

نسأل الله بمنه وكرمه وفضله أن يتوب علينا وأن يستر علينا، وأن يجعلنا ممن يرجوه ولا يخاف إلا منه.

انحراف الخوارج وضلالهم

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد أخرج البخاري عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذُهَيبةٍ في أديم مَقْرُوْظ، لم تُحصَّل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر، بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع: إما علقمة وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنَّا نحن أحق بهذا من هؤلاء، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء**».

قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال يا رسول الله اتق الله، قال: «**ويلك، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**» قال: ثم ولى الرجل، قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**» فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم**».

قال: ثم نظر إليه وهو مقف، فقال: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية [ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه**

فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه، - وهو قدحه -، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس]»، وأظنه قال: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**»(١).

وفي رواية: أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، اعدِلْ، فقال: «**ويلك ومَن يعدل إذا لم أعدل؟! قد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل**»، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه، فأضرب عنقه(٢).

وفي رواية أنه قال في وصفهم: «**يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان**»(٣).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن بعدي من أمتي - أو سيكون بعدي من أمتي - قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حَلاقيمَهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه، هم شر الخلق والخَلِيقة**»(٤).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «**سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة**»(٥).

---

(١) البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) البخاري (٣٦١٠).
(٣) أخرجها البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٦٧).
(٥) أخرجه البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي غالب قال: لما أتي برؤوس الأزارقة فنصبت على دَرَج دمشق، جاء أبو أمامة ﷺ فلمَّا رآهم دمعت عيناه فقال: «كلاب النار، ثلاث مرات، هؤلاء شرُّ قتلى قتلوا تحت أديم السماء، وخير قتلى قتلوا تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء»، قال: فقلت: فما شأنك دمعت عيناك؟ قال: رحمة لهم إنهم كانوا من أهل الإسلام. قال: قلنا: أبرأيك قلت: هؤلاء كلاب النار، أو شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: إني لجريء بل سمعته من رسول الله ﷺ غير مرة ولا اثنتين ولا ثلاث قال: فعد مرارًا[١]

وبالجملة، فلم يأت في السنة النبوية تحذير من فرقة بعينها من فرق هذه الأمة - التي ذكر النَّبي ﷺ أنها ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة - كما جاء في الخوارج، فقد ورد فيهم عددٌ من الأحاديثِ الصحاح والحسان تجاوزت العشرين حديثًا.

قال ابنُ أبي العز رحمه الله: «وقد ورد في ذم القدرية أحاديثُ في السنن... وروي في ذم القدريةِ أحاديثُ أخرُ كثيرة، تكلَّم أهلُ الحديث في صحة رفعها، والصحيح أنها موقوفةٌ، بخلاف الأحاديثِ الواردةِ في ذم الخوارج، فإنَّ فيهم في الصحيح وحده عشرةَ أحاديث، أخرج البخاري منها ثلاثة، وأخرج مسلم سائرها»[٢].

وسبب ذلك - والله أعلم - لما يلي:

١ - عِظَم ضررهم المتحقق على الأمة الإسلامية، مفارقة لها، وقتلاً للمنتسبين لها.

---

(١) أحمد (٢٢١٨٣)، الترمذي (٣٠٠٠)، وابن ماجه (١٧٦)، والبيهقي (١٦٧٨٢)، وصححه الألباني.

(٢) «شرح الطحاوية» (٢/ ٧٩٧).

٢ - التباس أمرهم على عامَّة الناس واغترارهم بهم لصلاح ظاهرهم.

٣ - تخوضهم في الدماء واستهتارهم بها.

قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخوارج دينهم المعظم: مفارقة جماعة المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم»(١).

وصفاتهم الواردة في السنة عديدة: فهم في الغالب صغار السن(٢)، وفيهم طيش وسَفه وغرور وتعالي على الأمّة(٣)، مع سوء فهم للقرآن الكريم(٤)، واتخاذهم شعارًا في كل زمان(٥)، وتكفيرهم للمسلمين واستباحة دمائهم(٦)، والطعن على الأمراء ونسبتهم إلى الضلال(٧).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٠٩)، **وينظر**: (٣/ ٢٧٩).

(٢) ولعلَّ ذلك راجع إلى أنَّ سنَّ الشباب فيه طيش ورعونة، ومن تأمل أحوال من يتأثر بهذا الفكر، ويذهب إلى مواطن الفتن يرى صدق هذه الصفة فيهم.

(٣) قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنَّ عقولهم رديئة» «فتح الباري» (١٢/ ٣٦٥).

(٤) فلا يعقلون آياته ولا يفهمون أحكامه، إنما يتلون حروفه ولا يتجاوز حناجرهم إلى قلوبهم. وهذه الصفة من الصفات الواضحات لهم في زماننا هذا، فلا فقه لديهم في الدِّين، ولا يشتغلون بطلب العلم، ولم يُعرف عنهم تلقيه عن العلماء الكبار.

(٥) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقًا على قوله ﷺ: «سِيمَاهُمْ التَّحْلِيقُ»: «وهذه السِّيْما سَيما أولهم كما كان ذو الثديَّة، لا أنَّ هذا وصفٌ لازم لهم» «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٩٧)

(٦) «وهذا نعت سائر الخارجين؛ فإنهم يستحلون دِمَاء أهل القبلة لاعتقادهم أنهم مرتدون، أكثر مما يستحلِّون من دماء الكفار الذين ليسوا مرتدين؛ لأن المرتد شر من غيره». «مجموع الفتاوى» بتصرف (٢٨/ ٤٩٧) ومن تأمل حالهم هذ الزمان وجد مطابقة هذا الوصف عليهم، فكم فرقوا بين المسلمين بتكفيرهم واستحلال دمائهم، فكانوا عونًا لأعداء الأمة ضدها.

(٧) وهذا صفات الخوارج وأتباعهم، فلا تكف ألسنتهم في الطعن في أمراء المسلمين، وتضليلهم وتكفيرهم. قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما فتحوا الشر في زمان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنكروا على عثمان **جهرة** تمَّت الفتنة والقتال والفساد الذي لا يزال الناس في آثاره إلى اليوم، حتى حصلت الفتنة بين علي ومعاوية، وقتل عثمان بأسباب ذلك، وقتل جمع كثير من الصحابة وغيرهم بأسباب الإنكار العلني وذكر العيوب علنًا، حتى أبغض النَّاس ولي أمرهم وقتلوه».

وما أصدق ما قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم: «وهذا الضربُ من الناس من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوَّع خلقه كما أراد وسبق في قدره العظيم، وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج: إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]»[(١)].

هؤلاء القومُ يخرجون على ولاة الأمورِ، ويضربون البر والفاجر، يخرجون بتأويلات ضالة، وآراء منحرفة.

خرجوا أول ما خرجوا على عثمان بن عفان[(٢)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زوج بنتي رسول الله ﷺ، والمبشر بالجنة من رسول الله ﷺ، وثالث الخلفاء الراشدين، وهو الذي قال عنه ﷺ: «**ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم**»[(٣)]، فخرجوا عليه؛ لأنه في رأيهم قد ضلَّ وانحرف، وأنه يجب إصلاحُ الحال بالخروج عليه، بل بقتله، فخرجوا عليه وقتلوه، وليس على وجه الأرض يوم قتله أبر ولا أتقى ولا أصلح منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم توالت أعمالهم الإجرامية وفكرهم الضَّال في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي شهد له النَّبي ﷺ بمحبة الله له ومحبة رسول الله له، حيث قال: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله**

---

(١) «البداية والنهاية» (١٠/ ٥٨٠).

(٢) وهو أحد الأقوال في مبدأ خروجهم، **وقيل**: إنهم زمن رسول الله ﷺ، **وقيل**: زمن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **وقيل**: حين خرج الخوارج من المُحكِّمة عن جيش علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **وقيل**: أنهم ظهروا في عهد نافع بن الأزرق ابتداء من سنة ٦٤هـ. وما رجَّحناه هو اختيار ابن كثير وابن أبي العز .**ينظر**: «البداية والنهاية» (٧/ ١٧٩)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٧٩٩).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٦٣٠)، وفي «فضائل الصحابة» (٧٣٨)، والترمذي (٣٧٠١).

ورسوله، ويحبه الله ورسوله»[١]، فأعطاها له، وهو المبشر بالجنة، وزوجُ البَضْعَة [٢] النَّبويَّة فاطمة رضي الله عنها، وابن عمه ﷺ، فخرجوا عليه وقتلوه.

وقَاتِلُ عليٍّ إنما أراد بذلك - بزعمه - أن يتقرَّب إلى ربه، ولذلك مدحه عمران بن حطان[٣] بقوله:

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانًا

وردَّ عليه بعض أهل العلم فقال:

بل ضربة من شقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش خسرانا

إني لأذكره يومًا فأحسبه أشقى البرية عند الله ميزانا

فقتل هذا الشقيُّ عليًّا رضي الله عنه، وهو أتقى أهل الأرض يومئذ، وأبرهم وأخشاهم لله، ومع ذلك يتقرب هذا الشقي إلى الله بقتله[٤].

فهذه العقيدة الفاسدة وهذا الفكر الضال المنحرف خطر داهم على الأمة، وقد حذر منه النَّبي ﷺ، ووصف العلاج تجاههم بقوله: «**لئن لقيتهم لأقتلنهم قتل عاد**».

فاستئصال هذا الفكر يكون باستئصالِ أصحابه وقتلهِم، فقد قال النَّبي ﷺ: «**طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، هم شرُ قتلى على وجه الأرض**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٤).

(٢) أخرج البخاري (٣٧٦٧) أن رسول الله ﷺ، قال: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني»، **بضعة**: بفتح الموحدة وحكي ضمها وكسرها أيضًا وسكون المعجمة أي قطعة لحم.

(٣) شاعر من رؤوس الخوارج، وكان ممن قرأ القرآن على معاذ بن جبل، وكان من العباد. ينظر: «البداية والنهاية» (١١/ ١٩)، (١٢/ ٣٥٢).

(٤) ينظر تفصيل ذلك في: «البداية والنهاية» (١٠/ ٢٧٠)، (١١/ ٥).

يومئذ، هم كلاب أهل النار»، وذلك لاستفحالِ شرهم، وخطرهم، وضررهم على الأمة.

قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويجب قتالهم بأمر النبي ﷺ كما وجب قتال أولئك»[(١)]. أي كما وجبَ قتال الخوارج الأوائل.

فهم - كما قدمنا - يطعنون الأمة في خاصرتها، ويغدرون، ويفجرون، ويخونون، ويقتلون أهلَ الإسلام ويدعون أهل الأوثان.

ولذلك قال النَّبي ﷺ، لما سأله حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها**»، قال: صفهم لنا يا رسول الله. قال: «**هم قوم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**»، فقال حذيفة: فما المخرج إن أدركتهم؟ فقال ﷺ: «**أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»[(٢)].

فهذا هو المخرج الشرعي، ليس هناك مخرج غير ذلك، وإلَّا لبيَّنه الرسول ﷺ، فعلى المؤمن أن يعرف المنهج الشرعي في هذا الأمر.

فهذه الفتن التي أطلَّت برأسها النتن الخبيث على الأمة، لا سيما في المملكة العربية السعودية التي تُحكِّم شرع الله، وتقيم شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترعى الحرمين الشريفين، وتؤمِّن السبل لقاصدي هذين البيتين الشريفين من أنحاء العالم، فإنها مستهدفة من أصحاب هذا الفكر الضال.

والواجب على المؤمن تجاه هذا أن يلزم جماعة المسلمين،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

وإمامهم، والتحذير من هذه الفئة الضالة المنحرفة، وتحصين الشباب والفتيات من أن يتسلل مثل هذا الفكر الضال المنحرف إليهم.

نسأل الله أن يلهمنا رشدنا، وأن يحفظ علينا ديننا وأمننا، وأن يحفظ بلادنا من كل باغٍ وخارجٍ، وأن يكفينا شرَّهم، وأن يجعل تدبيرهم تدميرًا لهم.

الاستعداد لشهر رمضان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإننا نستقبل في قادم الأيامِ شهر رمضان، وهو شهر مبارك؛ افترض الله صيامه، تفتح فيه أبوابُ الجنة، ويغلق فيه أبوابُ الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر.

هذا الشهر الذي ينتظره أهل الإيمان بشوق وترقب ورغبة ودعاء لله تعالى أن يبلغهم هذا الشهر؛ لما عَلموا من فضائله، وما أفاء الله تعالى به على هذه الأمة من فضل عظيم فيه.

وقد ثبت عن رسول الله في هذا الشهر الكريم من الأحاديث الكثيرة ما يدلُّ على عظم شأنه، وأنه شهرُ المواساة، والإحسان، والصدقة، والمسارعة للخيرات، والمنافسة فيها.

وهو الشهر الذي كان النَّبي ﷺ يجتهد فيه ما لا يجتهد في غيره[(١)].

وكان عليه الصلاة والسلام يتدارس مع جبريل عليه السلام القرآن وذلك في كل يوم، ولرسول الله ﷺ حين يدارسه جبريل القرآن أجود بالخير من الريح المرسلة[(٢)].

---

(١) أخرج مسلم (١١٧٥) أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر، ما لا يجتهد في غيره».

(٢) أخرجه البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).

ولله في هذا الشهر عتقاء وذلك في كل ليلة، وينادي مناد في أول ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر.

أخرج الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين، ومردة الجن، وغلقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها باب، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة**»(١).

فهو لأهل الخير الذين يتنافسون وينافسون في فعل الخير والمسابقة إلى الله تعالى موسم عظيم ومربح وفِير.

ولذلك ثبت عند أحمد عن أبي هريرة قال: لما حضر رمضان، قال رسول الله ﷺ: «**قد جاءكم رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها، فقد حرم**»(٢).

قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فهو غنيمة يغنمها المؤمن، فيحرص على اغتنام الخيرات والمسارعة إلى الطاعات، ويسأل ربَّه الإعانة والمباركة فيه؛ بأن يعينه الله تعالى على فعل ما يرضيه، وأن يبارك له في هذا الشهر، فإنَّ المعوَّل ليس على

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وابن خزيمة (١٨٨٣)، والحاكم (١٥٣٢)، والبيهقي (٨٥٠١)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٧١٨٤)، وصححه أحمد شاكر والأرناؤوط.

إدراك الشهر، وإنَّما المعوَّلُ على من أدرك الشَّهر ووفَّقه الله لفعل ما يرضيه سبحانه وتعالى.

ولذلك على المسلم أن يري الله من نفسه خيرًا في هذا الشهر، وأن يعقد العزم وهو يستقبل هذا الشهر على استثمار أيامه ولياليه، والتقرب إلى الله تعالى، وأن يكون هذا الشهر حجة له لا عليه، وأن يشمر عن ساعد الجد والمثابرة، وأن يكون شحيحًا بدقائق ليله ونهاره في كل ما يقربه إلى الله تعالى، فقد قال النَّبي ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه**»(١).

ومن عظيم فضل الله في هذا الشهر أنه لا حدَّ لمضاعفة أجر الصيام فيه.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما من حسنة يعملها ابن آدم إلا كتب له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، قال الله: إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، الصيام جنة، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»(٢).

وفي رواية: « **كل عمل ابْن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجْزي به**»(٣).

وفي رواية للبخاري: «**لكل عمل كفارة، والصوم لي، وأنا أجزي به**»(٤).

---

(١) البخاري (١٧٦١) ومسلم (١٩٤٦).
(٢) البخاري (٢٥٣٦)، ومسلم (١١٥١).
(٣) البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١).
(٤) البخاري (٧٥٣٨).

ولأحمد: «**كل العمل كفارة، والصوم لي، وأنا أجزي به**»[١].

فعلى الرواية الأولى: يكون استثناءُ الصوم من الأعمال المضاعفة، فتكون الأعمال تضاعفُ بعشر أمثالِها إلى سبعمائَةِ ضعفٍ إلا الصوم، فإنه لا ينحَصرُ تضعيفه، بل يضاعِفه الله أضعافًا كثيرةً. فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وأما على الرواية الثانية: فاستثناء الصِّيام يرجع إلى أنَّ سائر الأعمال للعباد، والصيام اختصه الله لنفسه.

وأما الرواية الثالثة: فالاستثناء يعود إلى التكفيرِ بالأعمال.

سأل رجلٌ سفيانَ بنَ عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: يا أبا محمد فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ «**كلُّ عملِ ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»، فقال ابن عيينة: (هذا من أجود الأحاديث وأحكمها، إذا كان يوم القيامة يحاسب الله ﷻ عبده ويؤدي ما عليه من المظالم من سائر عمله حتى لا يبقى إلا الصوم فيتحمل الله ما بقي عليه من المظالم ويدخله بالصوم الجنة)[٢].

وعلى هذا: فيكون المعنى: أنَّ الصيام لله ﷻ، فلا سبيل لأحد إلى أخذ أجره من الصيام، بل أجره مدَّخر لصاحبه عند الله، وحينئذ فقد يقال: إن سائر الأعمال قد يكَّفرُ بها ذنوبُ صاحبها، فلا يبقى له أجر.

وقد دلَّت الأدلة الشرعية أن الصائمين على قسمين:

الأول: من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله ﷻ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

---

(١) أحمد (٩٨٨٨)

(٢) أخرجه البيهقي (٨٣٣٥).

الثاني: من صام عن محارم الله دائمًا في صومه وفطره، ليله ونهاره، وفي جميع أوقاته، وجاهد نفسه على ذلك، فهم صائمون عن محارم الله، يؤدون ما أوجب الله، واقفون عند حدود اللهِ، وهؤلاء هم خيرة المؤمنين، فلهم عند الله المنزلةُ العالية والفضل الكبير(١).

فالمسلم في شهر رمضان ليس كغيره في سائر الشهور، بل هو أقرب إلى الله تعالى، وأعظم في فعلِ الصالحات واستثمارِ أيامه ولياليه في كل ما يقربه من نوافلِ الصلوات والصدقة والإحسان إلى الناس، والبر والصلة، وكثرة قراءة القرآن، والذكر لله تعالى والتسبيح.

ومن أعظم ما يستقبل به الشهر هي التوبةُ النصوح لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١].

فليجعل المرء من شهر رمضان فرصة للإقلاع عن الذنوب كلها، وبدء صفحة جديدة مع الله ملئها الإيمان به سبحانه وتوحيده والإقبال عليه والتوبة من كل ذنب وخطيئة، واستثمار الأيام والليالي، وأن يحذر من قطاع الطريق المستقيم الذين لا يقطعون على المسلمين أقواتهم ويسرقونها، وإنما يصرفونهم عن ذكر الله تعالى وعن طاعته وعن استثمار أيام هذا الشهر ولياليه.

فَكُن - يا عبد الله - المؤمنَ الكيِّسَ الفطن الشحيح بوقته، الذي يعلم فضل هذا الشهر، وأن منزلته إنما تكون لمن استثمرها، وعرف قدرها، ونافس مع المنافسين إلى الله تعالى.

وعلى المرءِ أن ينصح بذلك أهلَ بيته وأولاده ومن يعرف في استثمار هذه الأيام والليالي.

---

(١) **ينظر**: شرح شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ على كتاب «وظائف رمضان» (ص٨٦).

ونية المؤمن خير من عمله[١]، فيعقد العزم في مستقبل هذا الشهر على أن يستثمر أيامه ولياليه، وأن يري الله من نفسه خيرًا، وأن يسأل الله التوفيق والإعانة والسداد.

أسأل الله الكريم أن يبلغنا رمضان، وأن يعيننا على القيام والصيام والتزود من الطاعات، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(١) **ينظر**: «مختصر الفتاوى المصرية» (ص١١).

رعاية الأبناء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن المرء إذا استرعاه الله تعالى على أمانة، سيسأل عنها يوم القيامة، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فأداء الأمانة واجب، والقيام بهذه الأمانة على الوجه الذي أراده الله تعالى من المؤتمن أمانة ومسؤولية سيسألُ عنها العبدُ يوم القيامة.

ومن أعظم الأماناتِ التي استرعى اللهُ تعالى عليها عباده الأبناءُ والبنات.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النِّسَاء: ١١]: يعني في أبنائكم وبناتكم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التَّحْريم: ٦]، مروهم بالخير وانهوهم عن الشر وعلموهم وأدبوهم تَقُوْهم بذلك نارًا[١].

---

(١) **ينظر**: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠٣)، «تفسير البغوي» (٨/ ١٦٩).

وهذه الآيةُ أصل عند العلماء في السؤالِ عن الأمانة الملقاة على عاتق الوالدين في تعليمِ أولادهم وتأديبهم وتوجيههم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فوصية الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم...، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنَّما جاء فسادهم من قِبَل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدِّين وسننه فأضاعوهم صغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا»[(١)].

ولذلك قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفَال: ٢٨].

وقال في سورة التغابن: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفَال: ٢٨].

فالأولاد فتنة: أي ابتلاءٌ وامتحانٌ، فيمتحن الله تعالى الوالدين بالأبناء والبنات.

وهذه المسؤوليةُ سيسأل عنها الوالدُ، كما قال ﷺ: «**والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[(٢)]، أي أن كل أحد سيقف بين يدي الله تعالى ويسأل عن هذه الرعية التي استرعاه اللهُ تعالى عليها، حفظها، أم ضيعها.

قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الراعي: هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره ففيه أن كلَّ مَنْ كان تحت نظره شيء فهو مطالبٌ بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته، فإن وفى ما

(١) «تحفة المودود» (ص٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٠٠)، ومسلم (١٨٢٩).

عليه من الرعايةِ حَصَلَ له الحظُ الأوفر والجزاءُ الأكبر، وإن كان غير ذلك طالبه كل أحد من رعيته بحقه»[(١)]

وقد قال النَّبي ﷺ: «**وما من عبد يسترعيه الله رعية ثم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يجد رائحة الجنة**»[(٢)].

فأداء هذه الأمانة على وجهها مسؤولية عظيمة وأمانة كبرى، يجب على الوالدينِ أن يقوما بها على الوجه الشرعي؛ بحيث يجد الإنسان فيه الجواب الصائب عندما يسأل يومَ القيامة عن ماذا فعل مع أولاده؟

ولذلك قال بعض أهل العلم: إن الوالد يُسأَلُ عن ولده، قبل أن يسأل الولد عن والده[(٣)].

ومما يعين على أداءِ هذه الأمانة على وجهها:

١ - **الاستعانة بالله وسؤاله**، ولذلك كان من دعاء الصالحين، قولهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفُرقان: ٧٤].

ومن دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فهذا دأب الصالحين أنهم يَدعون بصلاح ذرياتهم وفلاحهم ونجاحهم.

---

(١) «عمدة القاري» (٦/ ١٩٠)، **وينظر**: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/ ٢١٣)، و«فتح الباري» (١٣/ ١١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٤٢).

(٣) **ينظر**: «تحفة المودود» (ص٢٢٩).

٢ - **أن يكون الوالد قدوة لولده في عمل الخير**، فكيف تدعوه إلى الخير وأنت تخالف؟!، فإن الأبناء ينظرون إلى الوالدين ويقتدون بهما، ويتأسون بأفعالهما، ولذلك يجب على الأب أن يكون قدوةً لأبنائه في الخير والعمل الصالح وفي فعل ما يرضي الله تعالى، واجتناب ما يسخطه ومعاصيه.

قال عمرو بن عتبة لمعلّم ولده: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك نفسك، فإنّ عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت»[(١)].

٣ - **أن يحرص الأب على أن يرافق ابنه الرفقة الصالحة**، فإنَّ الإنسان مجبول على مخالطة الناس والعيش معهم، فالإنسان مدني بالطبع، لا تتم مصلحته إلا ببني جنسه يعاونونه على جلب المنفعة ودفع المضرة، ومن ذلك أن المرء عادة يكون له جليس يعينه على مصالحه في دنياه وأخراه، والناس متفاوتون في دينهم وأخلاقهم، فمنهم صاحب الخير، ومنهم صاحب الشرّ.

فمن صَاحَب صَاحِب الخير كان بركة له في الدنيا والآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزّخرُف: ٦٧].

ومن صَاحَب صَاحِب الشرِّ كان مفسدًا له في الدنيا، وحسْرة وندامة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفُرقان: ٢٧، ٢٩].

---

(١) «العقد الفريد» (٢/ ٢٧٢).

والنَّبي ﷺ قال: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[(١)] **أي**: على عادة صاحبه وطريقته وسيرته.

وقال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة**»[(٢)].

ولا شك أن الصَّاحب ساحب، وأنَّ الصديق يؤثر على أصدقائه، والجليس يؤثر على جلسائه، ومن الجلساء المؤثرين في هذا العصر وسائل التواصل وغيرها من القنوات الفضائية، فالكثير من الأبناء الآن يقضون أكثر أوقاتهم أمامها، والدخول على هذه المواقعِ والقنوات، ولذلك يجب على الأب أن يهتم بهذا الأمر غايةَ الاهتمام.

ثم يحذر أن يكون ابنه مرافقًا لمن فسد في أخلاقه وسلوكه، أو فسد في فكره وتوجهه، **فالشباب اليوم بين فتنتين ومحنتين عظيمتين**:

الأولى: ما يتعلق بالشهواتِ، والانحلالِ الأخلاقي، والمخدرات، وارتياد أماكن السوء، والرفقةِ السيئة التي تعين على هذا.

الثانية: أرباب الفكر الضال المنحرفِ؛ كخوارج هذا العصر، وأصحاب التوجهاتِ والانتماءاتِ الحزبية والفرقِ الضالة، ونحوها

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤١٧)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨). وصححه أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (١٥/ ١٧٨)، وشيخنا ابن باز في «مجموع فتاويه» (٦/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

مما يدعوه إليه أصحابُ الفكر الضال ودعاة الشر والفتنة والسوء.

فعلى الأب أن يرعى هذه الرعية حق قدرها، وأن يؤدي الأمانة على وجهها الشرعي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أفسد الأبناء مثل غفلة الآباء وإهمالهم، واستسهالهم شرر النار بين الثياب».

٤ - **أن يحرص الوالد على صلاح نفسه هو**، فبصلاحه يصلح من تحته بإذن الله، فإنَّ الابن ينتفع بصلاح أبيه إما بدعائه له أو بمحض رحمة الله وإحسانه لهذا الأب.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه دليل أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشملهم بركة عبادته في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة»[(١)].

فاحفظ الله يحفظك الله في رعيتك، وفي أولادك، فإن ذلك مما يعين على صلاحهم.

أسأل الله أن يصلح نياتنا وذرياتنا، وأن يقينا وإياهم شر المضلات والفتن، وأن يحفظهم من كل سوء ومكروه.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١١).

منافع الحج

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله تعالى فاضل بين الأشخاص والأزمان والأماكن، والتخصيص والاصطفاء شأن إلهي له سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبيَاء: ٢٣].

فاختار ﷺ من الملائكة: جبريل، **ومن البشر**: الأنبياء، **ومن الأنبياء**: محمدًا، **ومن السماوات**: العليا، **ومن البلاد**: مكة، **ومن الأشهر**: الأشهرَ الحرم، **ومن الليالي**: ليلةَ القدر، **ومن الأيام**: يومَ الجمعة، **ومن الليل**: وسطَه، **ومن المساجد**: المسجدَ الحرامَ.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحَجّ: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣][(١)].

ومما اختص الله تعالى به بعضَ الشهور أن جعلها من أشهر الحج.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

---

(١) **ينظر**: «زاد المعاد» (١/ ٤٣)، «حادي الأرواح» (ص١٠٦).

وأشهر الحج هي: شهر شوال، وذو القعدة وذو الحجة.

وهذا الاختصاص لهذه الأشهر، هو من لدن الشارع الحكيم.

وكما اصطفى ﷻ زمنًا للحج فإنه اصطفى له مكانًا، فاختار إيقاع هذا المنسك في خير البلاد وأشرفها، وهي البلد الحرام، «فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين كاشفي رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا، وجعله حرمًا آمنًا لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة ولا ينفر له صيد، ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته للتمليك بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفرًا لما سلف من الذنوب، ماحيًا للأوزار، حاطًا للخطايا، كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»، ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففي السنن من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة**»، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»، فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده، وأحبها إليه، ومختاره من البلاد؛ لما جَعل عَرصَاتها مناسك لعباده فرض عليهم قصدها، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التِّين: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البَلَد: ١]»[(١)].

(١) «زاد المعاد» (١/ ٤٧).

ومما لا شكَّ فيه أنَّ من أعظمِ الأعمال الصالحاتِ، وأفضلها إلى ربِّ الأرضِ والسماواتِ: فريضة الحج.

أوجبه اللهُ على عباده، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].

وجعله ركنَ الإسلام الخامس؛ كما في حديث ابن عمر الذي أخرجه الشيخان: «**بني الإسلام على خمسة، على أن يوحد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج**»(١).

والحج سبب لهدم الذنوب والسيئات، قال النَّبي ﷺ لعمرو بن العاص: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**»(٢).

وقال ﷺ عن الحج: «**من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(٣).

ومما ينبغي التذكير به: غفلة الناس عن مقاصد الحج التي من أجلها شُرع، وانشغال البعض بالتفقه في تفاصيل المسائل دون إعمال النظر في مقاصد الحج.

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحَجّ: ٢٧] دعا اللهُ تعالى عبادَه من جميع أطراف الأرض ونواحيها إلى حج هذا البيت المشرَّف على كل بقاع

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) واللفظ له.
(٢) أخرجه مسلم (١٢١).
(٣) أخرجه مسلم (١٣٥٠).

الأرض بتشريف الله واختيارِه راجلين أو راكبين، ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحَجّ: ٢٨]، وهو لفظ عامٌّ شاملٌ لكل نفع وخير، سواء في ذلك نفع الدنيا والآخرة.

قال الزمخشري: «نكَّر المنافع؛ لأنَّه أراد منافعَ مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات. وعن أبى حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه كان يفاضل بين العباداتِ قبل أن يَحُجَّ، فلما حجّ فضَّل الحج على العبادات كلها، لما شاهد من تلك الخصائص»[(١)].

قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: أمَّا الحج ففيه من الفوائدِ العظيمة ما لا تحيط به العبارة.[(٢)]

فمن أعظم مقاصد الحج: إظهارُ التوحيد لله رب العالمين؛ فكل مشاعر الحج هي توحيد، وهي مقصوده الأعظم، فإنَّ الحجَّ مؤسسٌ على التَّوحيد المحض والمحبة الخالصة.

قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحجُّ - بأعماله وأقواله - كله دعوة إلى توحيده، والاستقامة على دينه، والثَّبات على ما بعث به رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. فأعظم أهدافه: توجيه الناس إلى توحيد الله والإخلاص له والاتباع لرسوله ﷺ فيما بعثه الله به من الحقِّ والهدى في الحجِ وغيره. فالتلبية أول ما يأتي به الحاج والمعتمر، يقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك»، يعلن توحيده لله، وإخلاصه لله، وأن الله سبحانه لا شريك له، وهكذا في طوافه يذكر الله ويعظِّمه ويعبده بالطواف وحده، ويسعى فيعبده بالسعي وحده دون كل ما سواه، وهكذا

---

(١) «الكشاف» (٣/ ١٥٣).

(٢) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٢/ ٢٣٤).

بالتحليق والتقصير، وهكذا بذبح الهدايا والضحايا، كل ذلك لله وحده، وهكذا بأذكاره التي يقولها في عرفات وفي مزدلفة وفي منى، كلها ذكر لله وتوحيد له»[(١)].

ومن مقاصد الحج الكبرى: إقامة ذكر الله تعالى، فما جعل الطواف بالبيت، ولا السعي بين الصفا والمروة، ولا رمي الجمار إلا لذكر الله تعالى[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحَجّ: ٢٨].

فمن تأمل مناسك الحج وجد ارتباطها الوثيق بذكر الله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن الذِّكْر: «هو روح الحجِّ ولبُّه ومقصوده»[(٣)].

ومن مقاصد الحج ومنافعه: تحقيق الانقياد والمتابعة لله ولرسوله ﷺ، فإنَّ مبنى الحج على التسليم التام لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فيتجرد من ملابسه ويرتدي إزارًا ورداءً، ويطوف بالبيت سبعًا ويسعى سبعًا، ويبيت في منى ليلة التاسع استحبابًا، وليالي التشريق وجوبًا، ويقف بعرفة من بعد الزوال إلى تحقيق مغيب الشمس، ثم ينتقل إلى مزدلفة ويبيت فيها إلى ما بعد الفجر، ويوم العيد له أعمال مرتبة استحبابًا، ثم أيام التشريق يرمي ويبيت في منى وجوبًا، وهذه الأعمال قد لا يدرك الحاجُّ حكمتها، وإنما سبيله التسليم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ.

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١٦/ ١٨٦).

(٢) أخرج أحمد (٢٤٣٥١)، وأبو داود (١٨٨٨)، وابن خزيمة (٢٨٨٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنما جعل الطواف والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله** عَزَّ وَجَلَّ»، واختلف في وقفه ورفعه، والصحيح أنَّه موقوف. **ينظر**: «السنن الكبرى» للبيهقي (ح٩٦٤٦)، ولكن يشهد لصحة معناه القرآن؛ كما قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان» (٥/ ٣٤١).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٩٩).

وتأملْ قولَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قبَّل الحجر: «إني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك»[(١)]، ففيه التسليم التام والمتابعة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ.

وقد ذكر شيخنا ابن باز رحمه الله - في كثير من فتاويه وكلماته - عددًا من المنافع التي استنبطها من ملازمته حج بيت الله الحرام[(٢)]، ومنها[(٣)]:

١ - أنَّ من أداه على الوجه المرضي كان جزاؤه الجنة والكرامة وغفران الذنوب وحط الخطايا. «وبالهذا الهدف من خيرٍ عظيمٍ وفضلٍ كبير».

٢ - أن يأتي العبدُ بالعبادة مخلصًا لله، يقصد وجهه الكريم ويلبي ويقول: «لبيك لا شريك لك».

٣ - أن يتعارف المسلمون ويتواصوا بالحق ويتناصحوا.

٤ - أن يتعلموا دينَ الله، ويتبصروا في رحاب البيت العتيق، ورحاب المسجد النبوي، من العلماءِ والمرشدين والمذكرين ما قد يجهلون من أحكام دينهم، وما قد يجهلون من أحكام حجهم وعمرتهم، حتى يؤدوها على علم وبصيرة، وحتى يعبدوا الله في أرضهم وأينما كانوا على علم وبصيرة.

٥ - نشر العلم بين الحجاج لمن جاء وافدًا، بالاعتماد على قول الله ورسوله لا بالآراء الخارجةِ عن الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧).

(٢) حج شيخنا رحمه الله أكثر من ستين حجة تقبلها الله منه، وأوفاه جزاءها خير الجزاء وأكمله وأتمَّه.

(٣) **ينظر**: «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١٦/ ١٨٧)، (١٦/ ٢٤١)، (١٧/ ١٦١)، (٢٤/ ٣٠٣)، (٢/ ٢٣٤)، (٥/ ١٣٦)، (٥/ ١٣٩)، وغيرها.

٦ - الاستكثار من الصلوات والطواف.

٧ - إيفاء ما على الحاج من نذور، ومن عبادات نذرها تؤدَّى في المسجد الحرام، ومن هدايا يذبحها في منى وفي مكة، ومن صدقات يؤديها.

٨ - مواساة الفقير والإحسانِ إليه، من الحجاج وغير الحجاج، في هذا البلد الأمين وفي الطريق وفي المدينة المنورة.

٩ - الحرص على النفع وعدم الأذى، والبعد عن كل ما حرَّم الله من سائر المعاصي، ومن جملة ذلك إيذاء العباد فإن ذلك من أكبر المحرمات، وإذا كان مع حجاج بيت الله الحرام ومع العُمَّار صار الظلم أكثرَ إثمًا، وأشد عقوبة، وأسوأ عاقبة.

١٠ - التذكير بالآخرة، ووقوف العباد بين يدي الله يوم القيامة، لأنَّ المشاعر تجمع الناس في زي واحد، مكشوفي الرؤوس من سائر الأجناس، يذكرون الله سبحانه ويلبون دعوته، وهذا المشهدُ يشبه وقوفهم بين يدي الله يومَ القيامة في صعيدٍ واحدٍ حفاة عراة غرلاً خائفين وجلين مشفقين، وذلك مما يبعث في نفس الحاج خوف الله ومراقبته والإخلاص له في العمل.

١١ - البيع والشراء، ومكاسب أصحاب الحرف التي تتعلق بالحجاج والحركة المستمرة في وسائل النقل.

١٢ - اتصال المسلمين بعضهم ببعض، وتشاورهم في كثير من أمورهم وتعاونهم في مصالحهم العاجلة والآجلة واستفادة بعضهم من بعض.

١٣ - دعوة المسلمين جميعًا إلى أن يكونوا جسدًا واحدًا وبناء واحدًا في اتِّباع الحقِّ، والثَّبات عليه، والدَّعوة إليه.

١٤ - توجه القلوب إلى الله سبحانه، والإقبال عليه، والإكثار من ذكره، بالتلبية وغيرها من أنواع الذكر، وهذا يتضمن الإخلاص لله في العبادة وتعظيم حرماته والتفكير في كل ما يقرب لديه ويباعد من غضبه.

والمقصود: أنَّ الحج شعيرة من شعائر الإسلام العظيمة التي تجمع المنافع الدنيوية والأخروية.

والمسلم مطالب شرعًا بالمسارعة إلى الخيرات، وفعل ما يرضي ربَّ الأرض والسماواتِ، ومن ذلك المبادرة إلى أداء الحج وقضاء هذا النسك العظيم وهذه الفريضة الكبيرة التي هي من مباني هذا الدين العظيم، وأركانه الجسام، وعلى المؤمن أن يستشعر مِنَّة الله تعالى عليه أن يسَّر له سبل الخير والاستزادة منها، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحُجرَات: ١٧].

ولذلك كان من حالِ أهل الجنة عندما يدخلونها - نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها - قولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعرَاف: ٤٣].

فيسأل العبد ربه التوفيق لعمل الصالحات والإعانة، ولذلك من وصية النَّبي ﷺ لمعاذ: «**لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

نسأل الله أن يوفقنا لكلِّ خير، وأن يجعلنا من المسارعين في الخيرات، وأن يبارك في أعمالنا وأعمارنا.

استصغار العمل وعدم الاغترار به

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ استصغار العملِ وعدم الاغترار والعجب به هو ثمرة من ثمرات إخلاص هذا العمل.

ولن يتحقق ذلك للعبد إلا إذا عرف العَبد قَدْر ربِّه وعظمته وشهد حقيقة أنَّه يتقرب للربِّ المألوه الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى، ﷻ، واستحضر نِعَمه عليه التي لا تعد ولا تُحصى، فلولا توفيق الله لما تعبَّد له، ولولا رحمة الله لما هداه، فمهما قدَّم العبد من طاعات فإنه لا يكافئ نعمه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلَّما شهدتَ حقيقةَ الربوبية وحقيقةَ العبودية، وعرفتَ الله، وعرفتَ النَّفْس، وتبيَّن لك أنَّ ما معك من البضاعة لا يصلح للمَلِك الحقِّ، ولو جئتَ بعمل الثقلين؛ خشيتَ عاقبته، وإنَّما يَقبله بكرمه وجوده وتفضُّله، ويثيبكَ عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله»[1].

فاستصغار العمل، واحتقاره، واستقلاله من علامات قبول العمل عند الله ﷻ.

وإنَّ العارفَ ليستغفر الله عقيب طاعته لشهوده التقصير في حقِّ الله ﷻ.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٤).

وقد كان النَّبي ﷺ إذا سلَّم من صلاته استغفر الله ثلاثًا[١].

وأمر الله عباده عقيب الحج أن يستغفروه، كما قال تعالى: ﴿...فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨].

وأمر اللهُ تعالى بالاستغفار ومدح المستغفرين بالأسحار عقيب صلاة قيام الليل، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذّاريَات: ١٨].

وقد شرَّع النَّبي ﷺ الدعاء بعد الوضوء أن يقول المسلم: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**»[٢].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للعبد كلَّما فرغ من عبادة أن يستغفرَ الله عن التّقصير، ويشكره على التَّوفيق، لا كمَن يرى أنَّه قد أكملَ العبادةَ ومنَّ بها على ربِّه، وجعلت له محلّاً ومنزلةً رفيعة، فهذا حقيقٌ بالمَقت وردِّ العمل، كَما أنَّ الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أُخَر»[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «فمن أحس بتقصير في قوله، أو عمله، أو حاله، أو رزقه، أو تَقَلُّبِ قَلْبِ: فعليه بالتوحيد والاستغفار، ففيهما الشِّفَاء إذا كانا بصدق وإخلاص»[٤].

---

(١) أخرج مسلم (٥٩١) عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ، إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام**».

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٥٥)، وأصله في مسلم (٢٣٤).

(٣) «تيسير الكريم المنان» (ص٩٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٨).

كلُّ ذلك يدل على أن المرءَ إذا استشعر عظم حق الله والواجب الذي شرعه الله تعالى على عباده، ثم نظر إلى عمله، وعيب نفسه، فليس له بد من الاستغفار واستصغار العمل واستقلاله.

وينبغي على العبد أن يستصغر العمل كائنًا ما كان هذا العمل، لأنه لا يوازي مهما عَظُم وكبر حق الله تعالى الواجب على العبد.

ولذلك قال النَّبي ﷺ: «**لن يُدخِلَ أحدًا عملُه الجنة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة**»(١).

فليست الجنة ثمنًا لأعمال العباد - وإن كانت الأعمال سببًا لدخول الجنة - بل إنَّ رحمة الله تعالى تشمل العبدَ المؤمن فيدخل برحمة الله تعالى الجنة، لا بعمله.

قال ابن أبي العزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما ترتب الجزاء على الأعمال، فقد ضلَّت فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهلَ السُّنة، وله الحمد والمنة.

فإنَّ الباءَ التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**» باء العوض، وهو أن يكون العملُ كالثَّمن لدخول الرجل إلى الجنةِ، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله.

والباء التي في قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الواقِعَة: ٢٤]

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

ونحوها، باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته»[(١)].

عن سلام بن أبي مطيع، قال: أتينا سعيدَ بن إياس الجُريري[(٢)] - وكان من مشايخ أهل البصرة - وكان قدم من الحَجِّ، فجعل يقول: أبلانا الله في سفرنا كذا، وأبلانا في سفرنا كذا، ثم قال: كان يقال إن تعداد النعم من الشكر[(٣)].

فالمرء إذا أعانه الله تعالى على فعل عبادة، فإنه يستحضر مِنَّة الله تعالى عليه أن أعانه ووفقه لهذا العمل الصالح.

ولذلك فإنَّ المؤمن إذا دخل الجنة قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فيستحضر المرء منة الله تعالى عليه.

ولذلك لما قال النَّبيُّ ﷺ للأنصارِ، وقد بلغته عنهم مقالة، وهو يعدِّد عليهم فضلَ الله تعالى بهذا الإسلام قال: «**ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي**»، فكان ردهم: الله ورسوله أمنُّ[(٤)].

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٦٤٣)، **وينظر**: «جامع الرسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٤٥)، «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧٠).

(٢) الإمام، المحدث، الثقة، أبو مسعود سعيد بن إياس الجريري، البصري، من كبار العلماء، وأحد علماء الحديث. قال أحمد بن حنبل: هو محدث البصرة. **ينظر**: «تاريخ الإسلام» (٣/ ٨٧٣)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٥٣).

(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٢٠٠).

(٤) أخرج البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، عبد الله بن زيد بن عاصم، قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئًا، =

فالمنة والفضل لله، وليس للعبد في هذا إلا استحضار منة الله تعالى عليه بالتوفيق والهداية لهذا العمل الصالح.

نقول هذا ونحن قد خرجنا من موسم الحج، وقد منَّ الله تعالى على بعض عباده بحج بيت الله الحرام، ومن لم يحج فقد مرت عليه الأيام الفاضلة والموسم العظيم، وإن المرء عند خروجه من هذا الموسم العظيم، ومن مواسم العبادات كلها يستشعر فضل الله ومنته سبحانه وتعالى عليه، ويكثر من الاستغفار، فإنه لا بدَّ للعبد مع استحضار واجب الله عليه؛ أن يستشعر ضَعْفُه وقلة عمل مهما كبر، فليس له بد من استغفار الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «عمل العبد لو بلغ ما بلغ ليس هو مما يكون ثوابُ الله مقابلاً له ومعادلاً حتى يكون عوضًا بل أقل أجزاء الثواب يستوجب أضعاف ذلك العمل»[(١)].

نسأل الله أن يغفر لنا زللنا وإسرافنا في أمرنا، وأن يتقبل منا طاعاتنا، وأن يجعل عملنا كله خالصًا لوجهه الكريم.

= فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي**» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «**ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ**». قال: كلما قال شيئا، قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «**لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**».

(١) «جامع الرسائل» (١/ ١٤٩).

مقام الخوف من اللّه تعالى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد بوَّب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: (**باب الخوف من الله**).

والخوف من الله من أجلِّ منازل الطَّريقِ للسائر لربه وأنفعها للقلب، وهو من أعظم المقامات، واللهُ تعالى وَعَدَ الخائفين منه بالجزاء العظيم، فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦].

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، وكل قلب ليس فيه خوفُ الله فهو قلب خرب»(١).

والخوف من الله تعالى واجب على كل أحد كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المَائدة: ٤٤].

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٤٩).

أخرج أحمد والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه**»(١).

قال ابن حجر رحمه الله: «هو من المقامات العلية وهو من لوازم الإيمان...، وكلَّما كان العبدُ أقربَ إلى ربه كان أشدَّ له خشية ممن دونه، وقد وَصَفَ اللهُ تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] والأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]»(٢).

وقد كان النَّبيُّ ﷺ أشدَّ الناس خوفاً من الله، ومن شدة خوفه كان يبكي في صلاته(٣)، وعندَ سماعه للقرآن الكريم(٤)، وكان إذا رأى آية من آيات الله الكونية غيرَ المألوفة ظهر خوفُه من الله على وجهه وحركاته كالمضطرب الوجل؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «إذا رأى مخيلة في السماء، أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرَّفته عائشة ذلك، فقال النبي ﷺ: «**ما أدري لعله كما قال قوم**: ﴿فَلَمَّا

(١) أخرجه أحمد (٢٥٢٦٤)، والترمذي (٣١٧٥).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣١٣).

(٣) أخرج أحمد (١٦٣١٢) وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤) وغيرهم، عن مطرف، عن أبيه، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرَّحى من البكاء ﷺ».

(٤) أخرج البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ علي**»، قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك، وعليك أنزل، قال: «**نعم**»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النِّسَاء: ٤١]، قال: «**حسبك الآن**»، فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان.

رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[(١)].

ومن تأمَّل أحوالَ الصحابة ﷺ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف:

فهذا الصِّديق ﷺ يقول: «وددت أني شعرةٌ في جنب عبد مؤمن».

وذُكر عنه أيضًا أنه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد».

وكان يبكي كثيرًا، ويقول: «ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنَّه عود من خشية الله ﷻ.

وقال: «والله لوددت أني كنت شجرة تؤكل وتعضد».

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطُّور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مَرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: «ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني»، ثم قال: «ويل أمِّي، إن لم يغفر لي - ثلاثًا- ثم قضي.

وكان يمرُّ بالآية في وِرده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيتِ أيامًا يعاد، يحسبونه مريضًا.

وكان في وجهه ﷺ خطان أسودان من البكاء.

وهذا عثمان بن عفان ﷺ كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبلَّ لحيته، وقال: «لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩)، وقولها ﷺ: «مخيلة في السَّماء»، أيْ: سحابة يخيل فيها المطر.

وكان عليُّ بن أبي طالب ﷺ يقول: «ألا وإنَّ الدنيا قد ولَّت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل».

وهذا أبو الدرداء كان يقول: «إنَّ أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدَّرداء، قد عَلمت، فكيف عمِلت فيما علمت»؟

وكان يقول ﷺ: «لوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل».

وكان عبد الله بن عباس ﷺ أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر ﷺ يقول: «يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أخلق».

وقرأ تميم الدَّاري ﷺ ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجَاثِيَة: ٢١] جعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة ﷺ: «وددت أني كبش فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي وحسوا مرقي»[(١)].

وأقربُ الوسائل إلى الله: خوفُه، وألَّا يأمن المؤمنُ مَكْره.

فالخوفُ من أعظم ما يحملُ المرءَ على فعل الطاعاتِ وترك

(١) **ينظر**: «الجواب الكافي» (ص٩١).

المعاصي والمنهيات، وإذا دعت الإنسان نفسُه الأمارةُ بالسوء، والشهوة والرغبة في الشر، تذكر الله تعالى فخافه.

ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ في السَّبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**»(١).

فهذا رجلٌ دُعي إلى ما ترغبه النَّفس وتشتهيه، ومن امرأة ذات منصب وجمال، ولم يكن قد سعا إليها بل دُعي إليها، ولكنَّه تذكر الله فخافه، فلم يمنعه من الوقوع في ذلك تعسُّر الأمر، ولا أنَّ النفس لا تشتهي ذلك، ولكن الذي منعه من ذلك الخوفُ من الله تعالى، ولذلك كان الجزاء منه سبحانه على ذلك أن اختَصَّه فجعله ممن يظلهم تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

وقد يُخوَّف الإنسان بالمخلوقين، وبأمور كثيرة، ولكنه يعلم أن الخوف من الله مقدم على كل شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

فالإنسان يخوف بكثير من الأمور: يخوف بفقر، أو بتسلط إنسان، أو بفقدان منصب، أو نحو ذلك، لكنه إذا تذكر الله؛ فإنه يخاف الله تعالى ولا يخاف ما دونه فيطمئنُّ قلبه وترتاح نفسه.

ومن أعظم الأسباب الداعيةِ إلى الخوف من الله: معرفة الله تعالى، ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ثلاثة أمور يحصل بها الخوف من الله تعالى:

الأمرُ الأول: معرفةُ عظم الجناية وقبحها، فإذا دُعيتَ إلى معصية، كأذى أحد من الخلق، أو إذا دَعتك نفسُك وقد أُعطيت قوةً، أو أُعطيت بياناً، أو أُعطيت سُلطة تضرُّ بها وتعتدي بها، فإنك تتذكر عظم المعصية وقبحها، فإن ذلك يدعوك إلى الخوف من الله.

الأمر الثاني: تصديقُ الوعيد وأن اللهَ رتَّبَ على المعصية عقوبتها، فإذا عرف مقدار العقوبة المترتبة على هذه المعصيةِ في الآخرة، خاف عذاب الله وتذكر وأناب وترك فعلَ المعصية.

الأمر الثالث: أن تخاف أن يحال بينك وبين التوبة من هذه المعصية، فمن الذي يضمن لك إذا فعلت هذه المعصية أن تتوب، فبعض الناس يقول: أفعل كذا وأتوب. فمن الذي يضمن له، فقد يحال بينك وبين التوبة إما بموت، أو بختم على القلب، وتزيين الباطل حتى يرى القبيح حسنًا، فلا يتوب منه.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فبهذه الأمورِ الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوةُ الخوف وضعفِه، فإنَّ الحامل على الذنب **إمَّا**: أن يكون عدم علمه بقبحه، **وإمَّا**: عدم علمه بسوءِ عاقبته، **وإمَّا**: أن يجتمع له الأمران، لكن يحمله عليه اتِّكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا عَلم قُبح الذَّنْب وعَلم سوءَ مغبَّته وخاف ألَّا يفتح له بابُ التوبة، بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

وبالجملة فمَنْ استقرَّ في قلبه ذكر الدَّار الآخرة وجزائها، وذكر

المعصية والتَّوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتَّوبة النَّصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو»[١].

وينبغي للمسلم أن يكون خوفه من الله باعثاً للعمل الصالح واجتناب الفواحش والآثام، وألَّا يكون سببًا في اليأس والقنوط من رحمة الله.

فالخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك.

(١) **ينظر**: «طريق الهجرتين» (ص٢٨٣)، ونقلها ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣١٣) ولم يعزها.

وصايا نبوية عظيمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ بلاغةَ النَّبيِّ ﷺ من مظاهر تفرده، ومن أعظم دلائل نبوته، وكان منطقه في الذروة العليا من كلام العرب الذين تمت فصاحتهم في حين بعثته ﷺ.

وكان ﷺ ذا لسان مبين، ومنطق مستقيم، لا يعاب عليه قول، ولا ينطق بهُجرٍ، وصاحب الحكمة البالغة والكلمة الصادقة، وقد أحاط الله منطقه بالعناية، ووصفه بالبيان؛ فقال ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النّجْم: ٣-٤].

وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، وسَواطع الحِكم، من عند رب العالمين، فكلامه أشرف الكَلم وأفضلها، وأجمع الحِكم وأكملها، وهو تِلو كلام المَلك العَلَّام، وثاني أدلة الأحكام، فإن علوم القرآن، وعقائد الإسلام بأسرها، وأحكام الشَّريعة المطَّهرة بتمامها تتوقف على بيانه ﷺ.

وكان من خصائص لفظه ﷺ ما وصفه هو ﷺ فقال في الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**بُعِثتُ بِجَوامعِ الكَلِمِ**»(١)، وفي رواية مُسلم: «**فضِّلتُ على الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوامعَ الكَلِمِ**»(٢).

---

(١) البخاري (٢٩٧٧).

(٢) مسلم (٥٢٣).

قال العزُّ بنُ عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن خصائصه ﷺ أنَّه بُعث بجوامع الكلم، واختُصِر له الحديثُ اختصارًا، وفَاق العربَ في فصاحته وبلاغته»[(١)].

فحديث رسول الله ﷺ تجد فيه أصول الهداية، ودقيق العلم، ولطيف الإشارة؛ كل ذلك في بيان عالٍ مع فصاحة وسماحة منطق.

والكَلم: جمع كلمة، **والجوامع**: جمع جامعة، كضاربة وضوارب.

والمعنى: أنَّه ﷺ «مُكِّن من الألفاظ المختصرة التي تدل على المعاني الغزيرة، وأنت إذا فكَّرت في كلامه وجدت جُلَّ كلماته جاريةً هذا المجرى، ولهذا فإنَّ الناظرين في السُّنة النبوية الدَّالة على الأحكام الشرعية، والحِكَم الأدبية لا تزال المعاني المستخرجة منها غضة طرية على تكرر الأعوام وتطاول الأزمان، ومع ذلك فإنَّهم ما أحاطوا بغايتها ولا بلغوا نهايتها»[(٢)].

وعن فصاحته وبلاغته ﷺ يقول القاضي عياض: «وأمَّا فصاحة اللِّسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل: سلاسة طبع، وبراعة مَنزعٍ، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلفٍ، أوتى جوامع الكلم، وخُصَّ ببدائع الحكم،... وأمَّا كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجامع كَلِمه وحِكمه المأثورة، فقد أَلَّف النَّاس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتبُ، ومنها ما لا يوازى فصاحةً، ولا يبارى بلاغة»[(٣)].

---

(١) «غاية السول في تفضيل الرسول ﷺ» (ص٤٧).

(٢) «الطراز لأسرار البلاغة» (٢/ ٤٩).

(٣) «الشفا» (١/ ٧٧-٧٠).

شاهدُ ذلك: أنَّ رجلاً جاء إليه ﷺ، فقال يا رسول الله: عِظْني وأوجز، فقال ﷺ: «**إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه، وأجمع اليأس عما في أيدي الناس**»(١).

هذه ثلاثُ وصايا عظيمة:

الوصية الأولى: «إذا قمت إلى صلاتك فصلِّ صلاة مودع».

وهذه الوصية في أمر عظيم، له شأن كبير، يتعلَّق بأعظم أركان الدِّين بعد الشهادتين، وهو الصَّلاةُ بحسن أدائها، والقيام بها على أكمل وجه.

ومما يعين على ذلك: أن العبد يستشعر وهو يصلي أن هذه الصلاة هي آخر صلاة يصليها، وأنه بعد ذلك ستقبض روحه، ولن يتمكن من صلاة غيرها، فليكن هذا الحال في كل صلاة تصليها، أن تستشعر أن هذه الصلاة هي آخر صلاة تؤديها، فستجمع قلبك في هذه الصلاة فتؤديها بخشوع وتدبُّر لما تقول وتتلو، وإتمام ركوعها وسجودها وأركانها، مع الانطراح بين يدي الله تعالى، فإن هذه الصلاةَ من أعظم الأسباب لصلاح العباد.

قال ابن رجب رحمه الله: «لأنه من استشعر أنه مودع بصلاته، أتقنها على أكمل وجوهها»(٢).

والصلاة على هذا الوجه: تنهى صاحبها عن كل خلق رذيل، وتحثه

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٩٨)، وابن ماجه (٤١٧١)، **ينظر**: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١/ ٧٥٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١١٤).

على كل خلق جميل؛ لما تُؤثِّره في نفسه من زيادة الإيمان، ونور القلب وسروره، ورغبته التامة في الخير قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العَنكبوت: ٤٥].

فهي من أعظم الأسباب التي تعين على صلاح العبد، وعلى بعده عن كل سوء وفحشاء ومنكر، ولذلك إذا أحسنَ العبدُ الصلاة بإتمام ركوعها وسجودها، وبالخشوع فيها فإنَّ ذلك خير له وسبب لجذب الراحة والطمأنينة والسعادة والاستقرار في حياته وفي قلبه، فضلًا عن آخرته.

ولذلك كان النَّبي ﷺ يقول: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»[(١)]، وفي الحديث الآخر قال: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(٢)]، وكان ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى[(٣)].

فالصلاة صلة بين العبد وربه، وهي سبب للسعادة في الدنيا والآخرة.

قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالصلاة هي أعظم العبادات بعد الشهادتين، راحة للقلوب، وقرة عين ونعيم للروح؛ لمن أقبل عليها وحضر فيها بقلبه، وخشع فيها لله، واستحضر أنَّها عمود الإسلام، وأنَّها مناجاة للربِّ عَزَّ وَجَلَّ ووقوف بين يديه، فبذلك يرتاح فيها، وتقر عينه، ويجد لذة لها في نفسه، في قيامه وقراءته وركوعه وسجوده، وسائر ما شرع الله فيها»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٥٨)، وأبو داود (٤٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٠٣٧)، والنسائي (٣٩٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩).

(٤) «فتاوى نور على الدرب» (٨/ ٣٤).

الوصية الثانية: «ولا تكلم بكلام تعتذر منه».

أصله: ولا تتكلم. وإنما حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

وهذه وصية بحفظ اللسان، وليس المقصودُ منها ألا تعتذر، فمن أخطأ ولم يعتذر فقد أساء مرتين.

وإنَّما المراد أن تحفظ لسانك مما لا يحسن الكلام به، فيحوجك ذلك الكلام إلى الاعتذار.

والعبد يهوي بالكلمة الواحدة في النِّار سبعين خريفًا كما قال نبينا ﷺ: «**إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة، ما يرى أن تبلغ حيث بلغت، يهوي بها في النار سبعين خريفًا**»[1]، فالعاقل من صان لسانه وحفظه.

ولذلك قال: «**ولا تكلم بكلام تعتذر منه**» أي: فتندم عليه، وتبحث عن الأعذار عن هذا الكلام، بل؛ ليسعك الصمت.

فإذا كان هذا الكلام سيحوجك إلى الاعتذار والنَّدم عليه غدًا، فلا تتكلم به اليوم.

ولذلك قال النَّبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت**».

فالكلام إذا أردت أن تتكلم به على ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: أن يكون خيرًا، والإنسان مطلوب منه أن يتكلم بالخير.

الحال الثانية: أن يكون شرًا، ولا يجوز للإنسان أن يتكلم بالشر.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦٥٨).

الحال الثالثة: أن يكون مترددًا، لا يدري هل هو من الخير أم من الشر؟ والأمر في ذلك أيضًا أن يلزم الصمت.

وتأمل هذه الوصية من النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: «اعلم أنَّه ينبغي لكل مكلَّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة.

ومتى استوى الكلام وتَركه في المصلحةِ، فالسُّنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسَّلامة لا يعدلها شيء»[١].

ففي حالين يكون الصمت فيهما خير وأنقى وأنجى للعبد، ولا يتكلم إلا إذا علم أنَّ كلامه فيه الخير والفائدة والنفع.

ولذلك قال العلماء في معنى قول النَّبي ﷺ: «**ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدًا**»، إمَّا أن يتكلم بكلام يعتذر منه غدًا أي في الحياة، فيندم عليه ويعتذر، وإن لم يكن كذلك فيكون المراد به يوم القيامة، يوم تبلى السرائر ويحاسب العبد على كل كلمة تكلم بها.

ولذلك في كل يوم يصبح فيه العباد تُكفِّر الأعضاء اللسان، فتقول: «**اتَّقِ الله فينا، فإنَّما نحنُ بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»[٢].

وهذا فيه دلالة على عِظم خَطر ما يتكلَّم به الإنسان، وأنه مؤاخذ

(١) «رياض الصالحين» (ص٢٧٦).

(٢) أخرجه احمد (١١٩٠٨)، والترمذي (٢٤٠٧).

به، سواء الكلام باللسان أو الإشارة باليد، وقد قالت العرب: «القلم أحد اللسانين»[١].

فالعبد مؤاخذ بما يتكلم، وبما يكتب؛ لأن اليدَ أحد اللسانين، والكلام بالكتابة يبقى ويدوم، ولذلك فإنَّ ضرره سواء كان بما يتعلق بوسائل التواصل أو بالكتب والرسائل، أو غير ذلك، فالإنسان سيؤاخذ بما يقول وبما يكتب.

وما من كاتب إلا سيفنى ويُبقي الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

فانظر إذا أردت أن تكتب، هل هذا يسرك في القيامة أن تراه، وتظن أنه في صحائف أعمالك الحسنى، أو امتنع منه قبل ألا يكون هناك مجال للاعتذار، وإنما التقاضي بالحسنات والسيئات.

الوصية الثالثة: «وأجمع اليأس عما في أيدي الناس».

يعني اعزم واعقد قلبك على اليأسِ بما في أيدي الناس، وعلِّق قلبك ورجاءك باللهِ وحده، فلا تتعلق بالناس وبما في أيديهم، وإنما عَلِّق قلبك بالله تعالى، ومن توكَّل على الله فهو حسبه وهو كافيه وهو نعم المولى ونعم النصير.

وكلما كان الإنسانُ صاحبَ طمع وحرص تطلَّع إلى ما عند الغير؛ مِمَّن هو فوقه؛ لأن الإنسان إذا رأى من فضل عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى وحرص على الازدياد

(١) نقل ذلك الجاحظ في «البيان والتبين» (١/ ٨٥)، وابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ١٠٧)، وغيرهما.

ليلحق بذلك أو يقاربه هذا هو الموجود في غالب الناس[١].

واعلم أنّ اليأس عمَّا في أيدي النَّاس هي العِفة التي يؤتيها الله من تعفف ووطَّن نفسه عليها، كما قال ﷺ: «**ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله**»[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ اليأس عصمة، ومن أَيس من شيءٍ استغنى عنه، فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يعلِّق قلبه إلا بالله، فيبقى عبدًا لله حقيقة، سالمًا من عبودية الخلق، قد تحرَّر من رقِّهم، واكتسب بذلك العزَّ والشرف؛ فإنَّ المتعلق بالخلْق يكتسب الذلَّ والسُّقوط بحسب تعلقه بهم»[٣].

(١) **ينظر**: «شرح صحيح مسلم» (١٨/ ٩٨).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (١٧٤٥).
(٣) «بهجة قلوب الأبرار» (ص١٥١).

القصاص يوم القيامة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

في حديث عجب ينبغي للمسلم أن يتأمله؛ لما فيه من فوائد عظيمة ودروس جليلة، وهذا الحديث يرويه جابر بن عبد الله ﵁ - وهو من المكثرين من روايةِ الحديث[(١)] - قال:

بلغني حديثٌ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ سمعه من رسولِ الله ﷺ في القِصاصِ لم أسمعه، فابتعت بعيرًا فشددت عليه رحْلِي، ثم سرت إليه شهرًا، حتى قدمت مصر فأتيت عبد الله بن أنيس فقلت للبواب: قل له جابر على الباب فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فأتاه فأخبره، فقام يطأ ثوبه حتى خرج إلي فاعتنقني واعتنقته. فقلت له: حديث بلغني عنك سَمِعته من رسول الله ﷺ ولم أَسْمَعه في القصاص، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال عبد الله ﵁ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الله العباد - أو الناس - عُراة غرلاً بُهْمًا**»، قال: قلنا

---

(١) روى جابر ﵁: (١٥٤٠) حديثًا.

فائدة: المكثرون للرواية عنه ﷺ من الصحابة سبعة، نَظم أسماءهم عددٌ من العلماء، منهم السيوطي؛ حيث قال في ألفيته:

وَالْمُكْثِرُونَ فِي رِوَايَةِ الأَثَرْ: ... أَبُو هُرَيْرَةَ يَلِيهِ ابْنُ عُمَر
وَأَنَسٌ وَالْبَحْرُ كَالْخُدْرِيِّ ... وَجَابِرٌ وَزَوْجَةُ النَّبِي

البَحْر: عبد الله بن عباس، **الخُدري**: أبو سعيد، **وزوجة النَّبي**: عائشة. ﵃.

ما بُهْمًا؟ **قال**: «**ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد** - أحسبه قال: **كما يسمعه من قرب** -: **أنا الملك، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحدٌ من أهل النِّار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة**»، قلت: وكيف؟ وإنما نأتي الله عراة بهما؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**»(١).

في هذا الحديث العظيم فوائد:

الفائدة الأولى: حرص الصحابة على طلب العلم والتفقه في دين الله، وسماع أحاديث النَّبي ﷺ، ولو كلَّفهم ذلك ما كلَّفهم.

وطلب العلم نوع من أنواع العبادة، يتقرب به العبد إلى ربه، كما قال ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**»(٢).

والرحلة في طلب العلم شأن قديم، فقد رحل نبي الله وكليمه موسى عليه السلام إلى الخضر متعلمًا في قصَّته التي قصها الله علينا في سورة «الكهف»، وما كان في رحلته من غرائب وعوائق.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٤٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٣٣١)، والحاكم (٨٧١٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٣١). وعلقه البخاري في «صحيحه» (١/ ١٧٣) قال: «ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد». وعلقه أيضًا في موضع آخر (١٣/ ٤٥٤) قال: (ويذكر عن جابر، عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان»). وقد وصله الحافظ في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٥٥).
وينظر: «مجلس في حديث جابر الذي رحل فيه مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس رضي الله عنهما» للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي.
وحسَّنه ابن القيم في «مختصر الصواعق المرسلة» (٣/ ١٢٨٤)، والعراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٥/ ٢٣٨)، وصححه الألباني في «تخريج كتاب السنة» (١/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

وهؤلاءِ صحابة الرسول ﷺ منهم من قطع مئات الأميال ليلقاه ويتثبت من صدق نبوتهِ، ومنهم مَنْ سافر إليه من البلاد البعيدة ليسأله عن مسألةٍ وقعت له، أو حديثٌ سمع به كما في هذا الحديث، ورحل رجل من الصحابة إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر في حديث، ورحل عبيد الله ابن عدي رضي الله عنه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه في العراق في حديث، ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر رضي الله عنهما في حديث[١].

ثم صارت الرحلة شعارًا لأهل العلم إلى يوم الدين، «قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن والأوطار وتنعموا بالبؤس في الأسفار، مع مساكنة العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار»[٢].

وقد بوَّب البخاري رحمه الله في صحيحه: (باب الخروج في طلب العلم) أي السفر في طلب العلم.

قال سعيدُ بن المسيب رحمه الله: إنْ كنتُ لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

وعن أبي العالية رحمه الله قال: كُنَّا نسمع عن أصحاب رسول الله ﷺ فلا نرضى حتى خرجنا إليهم فسمعنا منه.

وقيل لأحمد رحمه الله: رجل يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير أو يرحل؟ قال: يرحل يكتب عن علماء الأمصار فيشافه النَّاس ويتعلَّم منهم[٣].

---

(١) **ينظر**: «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب البغدادي.

(٢) «معرفة علوم الحديث» للحاكم (ص٢).

(٣) **ينظر**: «فتح الباري» (١/ ١٧٥).

الفائدة الثانية: أن الله تعالى سيقتص يومَ القيامة للمظلوم ممن ظلمه كائنًا من كان، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

والتقاضي يكون بالحسنات والسيئات، كما قال النَّبي ﷺ: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهمَ له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يومَ القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»[(١)].

فلا يظن ظانٌ أنه إذا أفلت من عقوبةِ الدنيا في مظلمة ظلمها لأخ له اعتدى بها عليه في ماله أو عرضه أو نفسه، أنها ستذهب، بل هي مسجلة محفوظة، وسيقضى للمظلوم ممن ظلمه، حتى ولو كان من أهل النار، فلا يدخل أحدٌ النَّار وله مظلمةٌ على أحد من أهل الجنة إلا ويُقضى له، والله تعالى عَدل، وهو الملك الدَّيان.

فعلى العبد أخذ الحذر والحيطة، وأنه وإن سهل عليه أمر مظلمة لأحد من العباد في الدنيا بأخذ ماله، أو التهاون في حقوقه، أو بالاعتداء عليه في نفسه أو في عرضه، فإنَّ غريمه سيقف أمامه يوم القيامة ليقتصَّ منه بالحسنات والسيئات ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النَّبَإ: ٢٦].

أخرج الإمام مسلم عن أبي مسعود الأنصاري، قال: كنت أضرب غلامًا لي، فسمعت من خلفي صوتًا: «**اعلم، أبا مسعودَ**»، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فألقيت

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

السوط من يدي، وإذا يقول: «**اعلم، أبا مسعود، للهُ أقدرُ عليك منكَ عليه**»، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله، فقال: «**أما لو لم تفعل للفحتك النار**»، أو: «**لمستك النار**»[1].

وليعلم المظلوم كائنًا من كان، أنَّه إن لم يقتص له في الدنيا، فإنَّه سيقتص له يوم القيامة.

وقد قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧].

اللهم إنا نعوذ بك أن نَظلم أو نُظلم، أو أن نَجهل أو أن يجهل علينا.

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعينَ، أما بعد:

فإن منن الله ﷻ على عباده عظيمة جليلة، فأنعم على مخلوقاته بنِعم لا تُعدّ ولا تُحصى، قال ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النّحل: ١٨].

وقال في الآية الأُخرى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ففي هاتين الآيتين دعوةٌ من الله سُبحانه وتعالى للعبدِ أن يتفكَّر في نِعم الله تعالى عليه، وأن يستحضرها ولا ينساها، وأن يؤدي حقَّ شكر الله تعالى عليها: قولاً وفعلاً وحالاً واستشعارًا.

والنِّعم هي كلُّ خير ولذَّة وسعادةٍ، وكلُّ مطلوب ومؤثر، ولكن النِّعمة العظيمة في الحقيقيّة هي التي تكونُ في الدَّار الآخرة، فكلُّ سبب يُوصِل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها هي النِعمة الحقيقيّة.

وقد امتنَّ الله ﷻ على عباده بعدد من المنن الدينية التي ينبغي للمرء أن يستشعرها ليقوم ببعض حق الله عليه بشكرها.

ومن أعظم منن الله على العبد هداية للإسلام والتوحيد، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحُجرَات: ١٧].

قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «على الإنسانِ أن يعرف قدر هذه النعمة التي خُلق لها، فهي نعمة عظيمة، بل هي أعظم نعمة، وأكبر نعمة، وهي نعمةُ الإسلام، فكون العبد قد هداه الله للإسلام هي أكبر نعمة أسبغها الله عليه، فيجب أن يعرف فضل هذه النعمة، وأن يشكر الله عليها»(١).

فمن القيام بهذه النعمة التمسكُ بهذا الدين كما جاء من ربنا ﷻ، وأن يحذر المرء من زيادة فيه فهو دين كامل ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣].

فعلى المسلم أن يعرف لهذه النعمة قَدرها، وأن يرعى لها مكانتها وأن يعتني بها من كلِّ ما ينقصها أو يناقضها.

ويجب على المسلم أن يحمد الله على هذه النعمة الكبرى والمنة العظمى؛ إذ جعله من أهلِ التَّوحيد الخالص والدِّين الحق؛ فيكون دائم الشكر على نعمة الإسلام لما لهذا الدين من خصائص، فهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وهو دين الفطرة، ودين اليسر ورفع الحرج، وهو دين الفضيلة وتتميم الأخلاق.

ومن نعم الله علينا أن جعلنا من أهل السنة والجماعة توحيدًا لله في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

فمن أنعم الله عليه مع الأمر بالامتثال فقد تمت النعمة في حقه.

ومن منن الله على عباده: نعمة القرآن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يُونس: ٥٧-٥٨].

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٧/ ٣٠٥).

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: ٨٩].

فالقرآن منَّة عظمى من الله على عباده، هو كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلنا، وخبرُ ما بعدنا، وحُكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، مَن ترَكه من جبَّار، قصَمه الله ﷻ ومن ابتغى الهدى في غيره، أضلَّه الله تعالى، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، هو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تَزيغ به الأهواء، ولا تَلتبس به الألسنة، ولا تتشعَّب به الآراء، ولا يَشبع منه العلماء، ولا يَمَله الأتقياء، ولا يَخلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تَنته الجن إذ سمِعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجنّ: ١-٢].

من قال به صدَق، ومن عمِل به أُجر، ومن حكَم به عدَل، ومن دعا إليه، هُدِي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصّلت: ٤٢].

أنزل كتابه بيانًا للناس وهدى وشفاء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النّحل: ٨٩] وقال ﷻ: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يُوسُف: ١١١] وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسرَاء: ٩] وقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طٰه: ١٢٣] وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المَائدة: ١٥-١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان مَن فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقر في القلب وتمكن فيه

العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده وبره به وإحسانه إليه على الدوام أوجب له الفرحُ والسرورُ أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه. فلا يزال مترقيًا في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف»[١].

ومن نعم الله العظيمة علينا: بعثة نبيه محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤].

«أرسله رحمة للعالمين، وإمامًا للمتقين، وحسرة على الكافرين، وحجة على العباد أجمعين، بعثه على حين فترةٍ من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرقِ وأوضحِ السبل.

وافترض على العبادِ طاعته ومحبته، وتعظيمه وتوقيره والقيام بحقوقه، وسد إلى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه.

فشرح له صدرَه، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذل والصغار على من خالف أمره، وأقسم بحياته في كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه، فلا يذكر إلا ذُكر معه، كما في التشهد والخطب والتأذين»[٢].

ففضل الله تعالى علينا بالإيمانِ والقرآنِ وببعثة سيد المرسلين نبينا محمد ﷺ وبهذا الدِّين العظيم، هي نعمةٌ عظمى وكبرى، بل هي من كراماتِ الله تعالى لك - يا عبدَ اللهِ - أن أكرمك؛ فجعلك من أتباع هذا الدين، وممن اختصهم اللهُ فأنزل عليهم هذا القرآنَ العظيمَ واتباع هذا النبي الكريم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٩).
(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤).

ولذلك يستوجب هذا الأمر: أن يعتز الإنسانُ بدينه، وأن يفرح بهذا الدين، وأن يعلم أن مِنَّة الله تعالى عليه بهذا الدِّين عظيمة.

لذلك قال النَّبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

فالعبدُ بهذه المنة فَرِحٌ ومسرور ومعتز، ولذلك يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النَّار؛ لأنه استشعر نعمة الله وفضله، وما مَنَّ الله تعالى به عليه.

وهذا يستوجب أن يعتزَّ المسلم بدينه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنَافِقون: ٨]، فالاعتزاز بهذا الدين والتمسك به والفرح والاغتباط به من أصول الإيمان.

وهذا يوجبُ للعبد أن يعلم أنَّ ما عليه أهل الباطل من الاعتزاز بغير الله واتباع غير محمد ﷺ أنَّهم على ضلالة ولا شك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩].

ولذلك لا يجوز أن يشارك أهل الكفر في فرحهم أو أعيادهم المختصة بدينهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفُرقان: ٧٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد رحمه الله وغيرهما: أعياد المشركين(٢).

فلا يشهد أعياد الكفار المختصة بدينهم، ولا يشاركهم في هذا، ولا يهنئهم؛ لأن تهنئتهم كما قال ابن القيم: لو سلم قائلها من الكفر،

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) «تفسير البغوي» (٦/ ٩٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٧٩).

فقد أتى عظيمة من عظائم الأمور، وكبيرة من كبائر الذنوب، وهي أعظم عند الله من أن يهنئه لشربه الخمر، أو لفعله للزنا، ونحو ذلك[١].

والمسلم يفرح بدين الله تعالى وبهدايته، ولا يمكن أن يكون مشاركًا لأهل الباطل في باطلهم، أو يهنئهم على حالهم، بل يدعوهم إلى الإسلام أو على أقل تقدير أن يتمسك بدينه ويعتز به، ويعلم أنَّ من لم يتبع النَّبي ﷺ فهو على ضَلالة، كما قال النَّبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[٢].

وهذا يوجبُ للعبد أن يسأل اللهَ تعالى الثبات على دينه، ولذلك كان من أكثر ما يدعو به النَّبي ﷺ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عِمرَان: ٨][٣]، وكذلك كان يقولُ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[٤].

فالمسلمُ يدعو بالثبات على هذا الدين، ويفرحُ به ويغتبط به، وأهل الجنة إذا دخلوا الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعرَاف: ٤٣].

وإِنَّ من فضل الله ورحمته ومنته أن الله هيأ لهذه البلاد - المملكة العربية السعودية - ولاة أمر يرعون أمر الدِّين والدنيا، والقيام بالأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر وتحكيم شريعة الله، ولا شك أن هذه من نعم الله العظيمة التي اختصَّ الله بها هذه البلاد وأهلها.

---

(١) **ينظر**: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٤١).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣). (٣) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٦٧٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٨)، والترمذي (٢١٤٠)، والنسائي (٧٦٩٠)، وغيرهم.

العلم بأسماء الله وصفاته

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور- وفي رواية: النار - ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١).

جامع هذه الكلمات أنها في معرفة الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته، وأجلُّ العلوم وأعظم المعارف: العلم بالله تعالى.

ولذلك فإنَّ التعريفَ بالله وبأسمائه وصفاته وما يستحقه من إفراد في الألوهية والربوبية هي **أول** أصول دعوة الرسل عليهم السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

وثانيها: تعريفهم بالطريق الموصل إلى عبادة الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجُمُعَة: ٢].

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

وثالثها: تعريفهم بما لهم من الوعد والوعيد في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحجّ: ٤٩-٥١].

ورابعها: إقامة الحجة على الخلق، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء: ١٦٥].

وهذا الحديث العظيم يختصُّ بشيء من صفات الله ﷻ فكان من عظيم الأحاديث كما كانت آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله[1]؛ لاشتمالها على عشرين صفة من صفات الله ﷻ.

والنَّبي ﷺ لما قام في صحابته رضي الله عنهم بالخمس كلمات لم يجعل فيها غَير العلم بالله وبأسمائه وصفاته، فدلَّ ذلك أنَّ التعريف بالله والعلم به وبأسمائه وصفاته ﷻ أمر عظيم، وأن ذلك من أعظم أسباب الهداية والفلاح والسعادة للعبد في دنياه وأخراه، وأنه يجب أن يقوم ورثة الأنبياء من العلماءِ والدعاة بالاهتمام بهذا الأمر الذي قام به النَّبي ﷺ؛ لأن هذا الأمر العظيم متعلق بمسائل الاعتقاد، لا سيما الاعتقاد في الله تعالى.

وأعرف الناس بأسماء الله وصفاته أشدهم حباً له، «فكل اسم من أسمائه وصفاته تستدعي محبة خاصة، فإن أسماءه كلها حسنى وهي مشتقة من صفاتهِ، وأفعاله دالة عليها، فهو المحبوب المحمود على كلِّ

---

(١) أخرج مسلم (٨١٠) عن أبيِّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال: «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**».

ما فعل وعلى كلِّ ما أمر إذ ليس في أفعاله عبث، وليس في أوامره سَفَهٌ، بل أفعالُهُ كلُّها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة، والعدل، والفضل، والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه، ولا يتصور نشرُ هذا المقام حق تصوره فضلاً عن أن يوفَّاه حقه، فَأُعرف خلقِه به وأحبهم له ﷺ يقول: «**لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(١)، ولو شهد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها»(٢).

الكلمة الأولى: «إن الله لا ينام».

فالله تعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، وهذا يُحدث للعبد تَمام المراقبة لله تعالى، فهو سبحانه لا يغفل عن خلقه، ولا ينام، وهو تعالى مُطَّلِعٌ على كل شيء، وعليم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية يرى دبيب النَّملة السَّوداء على الصَّخرة الصَّماء في الليلة الظلماء، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني
وهو البصير يرى دبيب النملة السـ ... ـوداء تحت الصخر و الصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفان(٣)

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).
(٢) «طريق الهجرتين» (ص٦٩١).
(٣) «توضيح المقاصد» لابن عيسى (٢/ ٢١٥).

فعلى العبد أن يراقب الله تعالى ويخشاه ويستحي منه ﷻ، فبعض الناس إذا أراد أن يفعل معصية استخفى من أعين الناس، حتى من أهون الناس، ولو كان من الخدم أو صغار السن، وقد قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ١٠٨]، والله تعالى مطلع عليه، فلا يليق بالعبد أن يجعل الله تعالى أهونَ الناظرين إليه، وهو يعلم أن الله تعالى مطلع عليه، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غَافر: ١٩].

ولذلك لما قالت المرأةُ التي ألمَّت بها الحاجة، وخلَّت بين نفسها وبين من راودها، فقالت: أغلق الأبواب. فقال: أغلقت الأبواب كلها. فقالت: فأين الباب الذي بيننا وبين الله. فانتفض وتركها خوفًا من الله تعالى.

فالله تعالى مُطَّلع على العباد لا تخفى عليه خافية، ولذلك لا بد للعبد أن يستشعر إطلاع الله تعالى عليه وأن الله تعالى قريب رقيب.

قال ابن المبارك لرجل: «راقب الله تعالى»، فسأله الرجل عن تفسير ذلك فقال: «كن أبداً كأنك ترى الله»(١).

الكلمة الثانية: «**ولا ينبغي له أن ينام**»؛ لأنَّ النوم صفة نقص، والله تعالى له صفات الكمال المطلق، فالله منزه عن كل عيب ونقص، والنوم نقص، فالله تعالى منزه عنه.

وصفات الله ﷻ تنقسم إلى قسمين:

ثبوتية: وهي ما أثبتها الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ؛ كالعلو والوجه في هذا الحديث، وغيرها مثل الرحمة، والمحبة والحياة،

(١) نقلها عنه الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٩٧).

والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، فيجب إثباتها على الوجه اللائق به سبحانه.

سلبية: وهي ما نفاها عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ؛ كالنوم في هذا الحديث، وكالظلم والموت والجهل، والعجز، وغيرها، فيجب نفيها عن الله تعالى، مع وجوب إثبات ضدِّها على الوجه الأكمل.

الكلمة الثالثة: «**يخفض القسط ويرفعه**».

والقسط هو الميزان[١] كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**وبيده الميزان يخفض ويرفع**»[٢].

فالميزان عدل عند الله تعالى، فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئًا، فقد قال في الحديث القدسي: «**إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»[٣].

الكلمة الرابعة: «**يرفع إليه عملَ الليل قبل عملِ النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل**».

فعمل اليوم يرتفع للرب ﷻ مرتين: ففي آخر الليل وقبل دخول النهار، يرفع العمل إلى الله، وكذلك في آخر النهار وقبل دخول الليل يرفع إليه العمل ﷻ، هذا عمل اليوم.

وتعرض الأعمال على الله ﷻ كل أسبوع يومي الاثنين والخميس[٤].

---

(١) **ينظر**: «فتح الباري» (١٣/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٤). (٣) تقدم في أول الكتاب تخريجه وشرحه.

(٤) أخرج أحمد (٧٦٣٩)، والترمذي (٧٤٧) عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم**».

وفي كل سنة تعرض الأعمال على الله في شهر شعبان[١].

ولذلك كان النَّبي ﷺ يصوم الاثنين والخميس، ويكثر من صيام شهر شعبان؛ لأنه تعرض فيها الأعمال على الله، وكان يقول: «**أحب أن يعرض عملي على الله وأنا صائم**»[٢].

وفيه: إثبات صفة العلو لله ﷻ. وأهل السنة والجماعة يثبتون صفة العلو لله تعالى كما يليق به سبحانه من غير تحريف ولا تكييف ومن غير تمثيل ولا تعطيل، وهي من الصفات الذاتية[٣].

وعلو الله تعالى على ثلاثة أقسام:

الأول: علو شأن (أي علو شرف وقدْر وعظمة).

الثاني: علو قهر.

---

(١) أخرج أحمد (٢١٧٥٣)، والنسائي (٢٦٧٨) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قلت يا رسول الله، لم أرك تصوم شهرًا من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «**ذلك شهر يغفل الناس عنه، بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الاعمال إلى رب العالمين؛ فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم**».

(٢) **ينظر**: الحاشية (٢) و(٣).

(٣) **تنقسم الصفات الثبوتية إلى**:

صفات ذاتية: وهي التي لم يزل ولا يزال الله متصفاً بها، فهي لا تنفك عنه سبحانه وتعالى، كالعلم، والقدرة ونحو ذلك، وتسمى: الصفات اللازمة؛ لأنها ملازمة للذات لا تنفك عنها.

صفات فعلية: وهي التي تتعلق بمشيئة الله؛ إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وتتجدد حسب المشيئة؛ كالنزول إلى السماء الدُّنيا، والغضب، والفرح، والضحك، وتسمى: الصفات الاختيارية. وضابطها تقييدها بالمشيئة، تقول: يرحم إذا شاء، ويغضب إذا شاء.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين: باعتبار أصل الصفة ذاتي، وباعتبار آحاد الفعل فعلي، **فالكلام** - مثلاً - صفة **ذاتية** باعتبار أصله؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، أما باعتبار آحاد الكلام، فهو **صفة فعلية**؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته سبحانه .**ينظر**: «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» (ص٢٣)، «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» (ص٢٥).

وهذان القسمان لم يخالف فيهما أحد ممن ينتسب للإسلام سواء كان من أهل السنة أو أهل البدعة.

الثالث: علو الذات.

وهذا هو الذي جرى فيه الخلاف بين أهل السنة وبين أهل البدعة.

علو قهر وعلو الشأن جل عن الأضداد والأعوان
كذا له العلو والفوقيه على عباده بلا كيفيه[١]

الكلمة الخامسة: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

وهذا فيه إثبات لصفة الوجه لله تعالى، وأهل السنة والجماعة يثبتون صفة الوجه لله تعالى، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وهي من الصفات الذاتية الخبرية[٢].

والمراد بسبحات وجهه هو ضياء وجهه ونوره ﷻ، وهذا يوجب للعبد أن يعلم عظم الله تعالى، وأن هذا الحجابَ لو كشفه لأحرق نور وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ففيه إثبات البصر لله تعالى.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

---

(١) **ينظر**: «معارج القبول» (١/ ٢٩).

(٢) **تنقسم الصفات باعتبار أدلة ثبوتها إلى**:
صفات خبرية: وهي الصفات التي لا سبيل إلى إثباتها إلا عن الخبر عن الله أو عن رسوله ﷺ.
صفات سمعية عقلية: وهي الصفات التي يشترك في إثباتها الدليل السَّمعي (النقلي) والدليل العقلي، كالحياة والعلم.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وهذه الأنواع هي رُوح الإيمان ورَوْحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوي يقينه.

فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول، بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النَّافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله»[(١)].

وعلى المسلم أن يحرص على زيادة العلم به تعالى؛ لأن من كان بالله أعرف كان منه أخوف، ولطاعته أقرب، وعن معصيته أبعد، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨]، فكلما ازداد المرء علمًا بالله ازدادت خشيته لله تعالى.

قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالخشية لله حق، والخشية الكاملة إنما هي من أهل العلم بالله والبصيرة به، وبأسمائه، وصفاته، وعظيم حقه سبحانه وتعالى»[(٢)].

(١) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» (ص٧٢).

(٢) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٧/ ٢٠١).

اهدنا الصراط المستقيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن من أعظم ما أمر الله تعالى به أن يُتبع وأن يُلتزم به صراطُه المستقيم.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فهذا الصراط - صراط الله تعالى - الذي أمر سبحانه باتباعه، فلا نجاة للعبد، ولا سعادَة له ولا فوز، إلا باتباع صراط الله تعالى، فهو الذي يوصل إلى مرضاته وجنته وتحقيق مراده سبحانه وتعالى.

ومن ضلَّ عن صراط الله المستقيم واتبع السبل تفرقت به عن سبيل الله فضل ضلالًا بعيدًا.

ولذلك مثل النَّبي ﷺ بمثال عظيم لهذا الصراط؛ بأنَّ على جانبيه جداراناً وفيهما أبواب وعليها ستر مرخية، وعلى باب الصراط داع يقول: ادخلوا ولا تتفرقوا، وفي داخل الصراط داع يقول لكل من أراد أن يفتح بابًا من هذه الأبواب: لا تفتحه، فإن من فتحه ولجه. فالصراط هو الإسلام، والجداران هما حدود الله، والأبواب محارم الله، فمن ولج هذه الأبواب دخل في انتهاك محارم الله تعالى، ولا ينجيه إلا أن يحذر من الدخولِ في هذه الأبوابِ التي ليس عليها أقفال ولا أبواب مغلقة،

وإنما ستر مرخية تدعو الناس وتيسر لهم الدخول فيها، وهي مزينة ومسهلة، ولكن الداعي الحق يحذر الناس بقوله: لا تفتحه، فإن من فتحه ولجه.

أخرج الإمام أحمدُ عن النواس بن سمعان الأنصاري، عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط: سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب: ستور مُرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيُّها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تَلِجْه، والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الدَّاعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم**»[(١)].

فهو يدعوك إلى أن تلتزم صراط الله تعالى، وأن تتمسَّك به، ولذلك فإنَّ المسلم يدعو ربه في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة في سورة الفاتحة بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦].

والصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

فهذا الدعاء العظيمُ الجليل الذي لا غنى للعبد عنه، وهو الهداية إلى الصراط المستقيم، ووصف الله تعالى أهل هذا الصراط، بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٧].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٣)، والترمذي (٢٨٥٩)، والحاكم (٢٤٥)، وجوَّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في «جامع الرسائل والمسائل» (٢/ ٩٧).

والمنعم عليهم: هم أهل العلم والعمل، الذين علموا فعملوا.

والمغضوب عليهم: هم من علموا فلم يعملوا.

والضالون: هم من عملوا بلا علم.

وهذا الوصف هو أوضح وصف وأقوى بيان لأهل الصراط المستقيم الذين علموا فعملوا، فعبدوا الله عن علم.

وقد اختلف العلماء في معنى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦]، فمنهم من قال: القرآن، ومنهم من قال الإسلام، ومنهم من قال: هو النبيُّ محمد ﷺ[(١)].

وهذا كله من اختلاف التنوع لا التضاد، ومرجعه إلى أنَّ الصراط الذي أُمرنا بالتمسك به واتباعه وسلوكه هو تجريد المتابعة لله ولرسوله ﷺ، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلَّقاته وحقيقته شيء واحد وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلاً لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يُشرِك به أحدًا في عبوديته، ولا يُشرِك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول...

وهذا كله مضمون شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، فأيُّ شيءٍ فُسِّر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين»[(٢)].

---

(١) **ينظر**: «تفسير الطبري» (١/ ١٧٢)، «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٣٦).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٠)، **وينظر**: «مدارج السالكين» (١/ ٣٧)، «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لشيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ (٧/ ١٥٩).

والصراط تارة يضاف إلى الله، وتارة إلى العباد، ويذكر مفرداً معرفاً باللام تارة وبالإضافة تارة.

فأمَّا إضافته إلى الله فلأنه هو الذي شرعه ونصبه، **وأمَّا** إضافته إلى العباد فلأنهم أهل سلوكه، **وأمَّا** ذكره مفرداً معرفاً باللام تارة وبالإضافة تارة فلإفادة تعيينه واختصاصه وأنه صراط واحد بخلاف طرق أهل الضلال.

والصراط المستقيم هو الصراط الذي بعث به رسوله، وهو دينه، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزّخرُف: ٤٣].

وهُدي إليه إمام الأنبياء الخليل عليه السلام، فقال الله في وصفه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النّحل: ١٢١].

وهُدِيَ إليه نبينا ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعَام: ١٦١].

وجعله طريق أصحابه رضوان الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفَتْح: ٢٠].

وهو طريق أهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحَجّ: ٥٤].

والهداية إليه منَّة من الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النُّور: ٤٦].

وبالجملة: «فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة، جزاء وفاقًا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّمل: ٩٠]»[(١)]

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣).

سلامة الصدر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي النَّاس أفضل؟ قال: «**كل مخموم القلب، صدوق اللسان**»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد**»[(١)].

هذا سؤال عظيم عن أمر عظيم، عن أي الناس أفضل، أي من جهة الإيمان، وأفضل عند الله، وليس أفضل في منازل الدنيا، ومقامات أهل الدنيا، وإنما أفضل عند الله تعالى، فكان الجواب بهذه الأوصاف التي تتلخص في: سلامة الصدر.

فسلامةُ الصدر من الحقدِ والبغضاء والغل والحسد وسوء الظن وأمثالها، من علامات الإيمان، ومن خصال البر والإحسان، ومن لوازم التقوى.

وهذا المقصد الذي يقرره الحديث من سلامة الصدر مما حرصت الشريعة على تأكيدِه وترسيخه في القلوب.

فسلامة القلوب من الأمراض المعنوية مطلب ضروري، يعود على الفرد والمجتمع بالفائدة العظيمة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤٦٢)، وصححه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٣/ ١٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (ح٢٨٨٩).

وسلامة الصدر من النعيم المعجل في هذه الدنيا، وما تعجَّل عبدٌ الجنةَ بمثل سلامة الصدر وسلامة اللسان، ولذا قال ﷺ «**مخموم القلب، صدوق اللسان**».

اللسان والقلب أمرهما عظيم، فهما الظاهر والباطن، فالظاهر يُنبي عنه اللسان، والباطن في القلب، والمرء في أصغريه قلبه ولسانه، ولذلك كان مقياس وميزان الأفضلية في سلامة القلب واستقامة اللسان.

«**مخموم القلب**»، أي نقيُّه من كل دغل وعيب، **والمخموم في اللغة**: من خممتُ البيتَ إذا كنسته[1]، يقال: رجل مخموم القلب إذا كان نقي القلب من الغل والحسد، فخم القلب يعني تنظيفه من كل الأدران والأوساخ والقذارات التي بيَّنها النَّبي ﷺ بقوله: الإثم والبغي والغل والحسد.

«**صدوق اللسان**»: **أي**: مُبالغ للصدق في لسانه، فيحصل به المطابقة بين تحسين لسانه وبيانه، فيخرج عن كونه منافيًا أو مرائيًا مخالفًا.

«**النقي**» **أي**: نقي القلب، وطاهر الباطن.

«**لا إثم فيه**»: فهو محفوظ من الإثم.

«**ولا بغي**» **أي**: لا ظلم له.

«**ولا غل**» **أي**: لا حقد.

«**ولا حسد**» **أي**: لا تَمَنِّي زوال نعمة الغير.

---

(١) «الاستذكار» (٧/ ٤٩)، «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٨١) «لسان العرب» (١٢/ ١٩٠).

فالقلب السَّليم المحمود، هو الذي يريد الخير لا الشَّر[١].

ولذلك قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨-٨٩]، فلا بُدَّ من سلامة القلب وصحته واعتداله.

وقال النَّبي ﷺ: «**ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٢]، فبصلاح هذه المضغة يصلح حال الإنسان.

ومن أسبابِ سلامة الصدر:

١ - **التوحيدُ لله رب العالمين والإخلاص له في الأقوال والأعمال، ورجاء ما عنده**، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعَام: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسَان: ٩].

فالتوحيدُ يفتح للعبد بابَ الخير والسرور واللذة والفرح والابتهاج.

وفي الحديث الذي أخرجه أحمدُ عن زيد بن ثابت: «**ثلاث خصال لا يغل عليهن قلبُ مسلمٍ أبدًا: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي لا يبقى فيه غِلٌّ، ولا يحمل الغِلَّ مع هذه الثلاثةِ، بل تنفي عنه غِلَّه، وتنقِّيه منه، وتخرجه عنه، فإنَّ القلب يغلُّ على الشرك أعظم غِلٍّ وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠٢).
(٢) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٥٩٩).
(٣) أخرجه أحمد (٢١٥٩٠)، وابن ماجه (٣٠٥٦٩).

عن جماعة المسلمين بالبدعة، والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً. ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص، والنصح، ومتابعة السنة»[١].

٢ - **الرضا بما قسم الله وقدَّره للعبد وبما كتبه عليه**، فإنَّ العبد إذا علم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنَّ الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، أورثوه ذلك رضًا وطمأنينة في قلبه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا يفتح [للعبد] باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًا من الغش والدَّغل والغِل، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم، كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم، فالخبث والدغل والغش: قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضا، وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرِّضا»[٢].

٣ - **تلاوة القرآن وتدبره**، فلا شيء أنفع للقلب من ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا شيء أنفع للقلب من قراءة القران بالتدبر والتفكر؛ فإنه يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٠).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠١).

المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه»[١].

٤ - **حسن الظنِّ بالمسلمين**، وذلك أنَّ سوء الظن يورث الكراهية في النفوس، ولذا حرمه الله في كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجرَات: ١٢].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذبُ الحديث**»[٢].

فليس أريح لقلب العبد ولا أهنأ لنفسه من حسن الظن، فبه يسلم من أذى الخواطر المقلقة التي تؤذي النفس، وتكدر البال، وتتعب الجسد، وتفسد علاقة المرء بمن حوله.

عن زيد بن أسلم، قال: دُخل على أبي دجانة وهو مريض، ووجهه يتهلل، فقيل: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: «ما من عملي شيء أوثق في نفسي من اثنتين: لم أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي للمسلمين سليمًا».[٣]

وقال ابن رجب رحمه الله: «قال بعض السلف: أفضل الأعمال سلامة الصدور، وسخاوة النفوس، والنصيحة للأمة، وبهذه الخصال بلغ من بلغ، لا بكثرة الاجتهاد في الصوم والصلاة»[٤].

قال إياس بن معاوية: «كان أفضلهم عندهم - يعني الماضين - أسلمهم صدرًا وأقلهم غيبة»[٥].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٧).
(٢) البخاري (٥١٤٣)، مسلم (٢٥٦٣).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١٣).
(٤) «لطائف المعارف» (ص١٣٩).
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥١٨٥).

وقال سفيان بن دينار : «قلتُ لأبي بشر: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا، قال: كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيرًا، قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم»(١).

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أحب أن يقضي الله له بالخير فليحسن الظن بالناس»(٢).

والبغي: يكون فيما بينك وبين الناس بالظلم والاعتداء عليهم حسًا أو معنى.

فلا يكن في قلبك - يا عبد الله - غِلٌّ ولا حسد لأحد، فوالله لو سلمت القلوب من هذه الأمراض لسعِدَتْ في الدُّنيا والآخرة، وشعرت بالراحة والاطمئنان في الدنيا مع الفوز المبين يوم القيامة.

فهذا القلب لا بد أن تخم ما فيه من أدران وأوساخ وقاذورات؛ لكي يكون نقيًا صادقًا صافيًا، فصفاء القلب به نجاة العبد يوم القيامة، مع صدق اللسان ولا شك.

وإذا حفظ الإنسان قلبه من الغل والحسد والإثم والبغي، وحفظ لسانه من الكذب وقول الزور والغيبة والبهتان والفرية على الناس، سلم له دينه، وكان من أفضل الناس ومن أسعدهم في الدنيا والآخرة.

ولذلك احرص - يا عبد الله - دائمًا على نقاء قلبك وصدق لسانك، فبسلامة هذين العضوين نجاتك يوم القيامة، ومن أَحسنَ في صيانة نفسه من جهة هذين العضوين فإنه في سعادة ونجاة وكان ممن يظن به أن يكون من أفضل الناس، كما قال النَّبي ﷺ.

---

(١) أخرجه هناد في «الزهد» (٢/ ٦٠٠).

(٢) «المجموع» (١/ ١٣).

وأكثرْ من الدُّعاء كما كان النَّبي ﷺ يدعو: «**اللهم إني أسألك لسانًا صادقًا وقلبًا سليمًا**»[١].

(١) أخرجه أحمد (١٧١٥٥)، والترمذي (٣٤٠٧) مختصرًا .**ينظر**: «جزء من الكلام على حديث شداد بن أوس» لابن رجب، ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٣٣٣).

الانتفاع بالقرآن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ الانتفاع بهدايات القرآن ليس لكل أحد، وإنما لطائفة من الناس ذكر الله تعالى وصفهم في موضعين من كتابه.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قّ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قّ: ٤٥].

فهؤلاء هم أهل الانتفاع بالقرآن، فليس الانتفاع بالقرآن بمجرد تلاوته وحفظه، بل لا بد من تدبره والعمل بما فيه.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صٓ: ٢٩].

غايتان ذكرهما الله تعالى: التدبر والتذكر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وأَلْقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطِبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فانه خاطب منه لك على لسان رسوله... فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه»[(١)].

(١) «الفوائد» (ص٣).

والتدبر: هو النظر في عواقب الأمور، وما تؤول إليه[١].

ولذلك وصف النَّبي ﷺ الخوارج بأنهم يقرؤون القرآن، ولكنه لا يجاوز تراقيهم، وربما يحبرونه تحبيرًا، يقيمون حروفه، ولكن لا يجاوز حناجرهم، فما دَخَل القلب ولا وعاه القلب ولا تدبره[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المقصود من القراءة: فهمه وتدبره، والفقه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه، كما قال بعض السلف: «نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً» ولهذا كان أهل القرآن هم العالمين به، والعاملين بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب.

وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم»[٣].

ولذلك قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما تدبر آياته إلا اتباعه، والله يَعلم، أمَا والله ما هو بحفظ حروفهِ وإضاعة حدوده؛ حتى إنَّ أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كلُّه فما أسقط منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما ترى القرآن له من خُلق ولا عَمل...، لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء»[٤].

ولذلك لا ينتفع قارئ القرآن بمجرد التلاوة إن لم يعمل، وإلا فالتلاوة عبادة وقربة، وكل حرف تقرؤه من القرآن بحسنة إلى سبعمائة،

---

(١) **ينظر**: «التعريفات» للجرجاني (ص٥٤)، «زاد المسير» (٢/ ٧٢)، «المحرر الوجيز» (٢/ ١٦١).

(٢) **ينظر**: «انحراف الخوارج وضلالهم» من هذا الكتاب.

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٣٢٧).

(٤) أخرجه الآجري في «أخلاق أهل القرآن» (٣٤).

لكن الغاية هي: التدبر والعمل[١]، ولذلك قال النَّبي ﷺ: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به**»[٢].

فأهل القرآن ليس هم الحفظة فقط، ولا الذين يقرؤونه فقط، وإنما الذين يعملون به، والقرآن حجة لك أو عليك، ورب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه، وهو من أشد الكاذبين، فيكون حجة عليه لا له.

ولذلك املأ قلبك - يا عبد الله - بموعظة القرآن وأَحِبَّها.

ولا شك أن أعظم المواعظ وأجلها كلام الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يُونس: ٥٧-٥٨].

ولا شك أن من قرأ القرآن وتدبره وأَعمَل قلبه نفعه ذلك وأورثه حب القرآن والفرح به، فمن فرح بتلاوة القرآن فقد بلغ منزلة عظيمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الرّعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يُونس: ٥٨] الآية. ففضل الله ورحمته: القرآن والإيمان، من فَرح به فقد فرح بأعظم مَفْروح به»[٣].

وأختم بوصية شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «من الأمور التي

---

(١) أخرج الآجري في «أخلاق أهل القرآن» (٣٥) عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ١٢١] قال: «يعملون به حق عمله».

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٩).

أوصيكم ونفسي بها: الإقبال على تلاوة القرآن العظيم والإكثار منها ليلاً ونهارًا مع التَّدبر والتفكر والتعقل لمعانيه العظيمة، المُطِّهرة للقلوب، المحذرة من متابعة الهوى والشيطان... والمقصود من التلاوة هو التدبر والتعقل للمعاني، ثم العمل بمقتضى ذلك، كما قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمَّد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صٓ: ٢٩].

فبادروا - رحمكم الله - إلى تلاوة كتاب ربكم وتدبر معانيه وعمارة الأوقات والمجالس بذلك... واحذروا - رحمكم الله - ما يصدكم عن كتاب الله ويشغلكم عن ذكره من الصحف والمجلات وما أشبهها من الكتب التي ضررها أكثر من نفعها. وما دعته الحاجة إلى مطالعة شيء من ذلك فليجعل لذلك وقتاً مخصوصًا، وليقتصر على قدر الحاجة وليجعل لتلاوة كتاب الله وسماعه ممن يتلوه وقتًا مخصوصًا يستمع فيه كلام ربه، ويداوي بذلك أمراض قلبه ويستعين به على طاعة خالقه ومربيه المالك للضر والنفع والعطاء والمنع لا إله غيره ولا رب سواه»[1].

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٣/ ٢٤٩).

الإخلاص في القول والعمل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ من أعظم ما يُتواصَى به: الإخلاصُ في القول والعمل، ولا يكون العمل صالحًا وللمرء نافعًا ومنجيًا، إلا إذا كان خالصًا لوجه الله تعالى.

قال تعالى: ﴿...فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمَر: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والإخلاصُ لله أحدُ شرطي العبادة التي لا تقبل إلا بهما، وثانيهما: المتابعة للرسول ﷺ.

أخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما جاهر إليه**»[(١)]. **ففي هذا الحديث الشرط الأول لقبول العمل، وهو النية.**

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عمل**

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[١]. وفي هذا الحديث الشرط الثاني: وهو المتابعة.

فهذا الحديثان هما ميزان قبول العمل ظاهرًا وباطنًا عند الله ﷻ.

قال ابنُ رجب رحمه الله: «هذا الحديث[٢] أصل عظيم من أصول الإسلام وهو كالميزانِ للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث «**إنما الأعمالَ بالنيات**» ميزان للأعمال في باطنها، فكما أنَّ كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عاملهِ، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء»[٣].

والعمل لا يكون صالحًا إلا بهذين الشرطين، ولو كان هذا العمل في ظاهره من القربات ومن الأعمال الصالحات المنجيات، فلا يكفي أن يفعله العبدُ، بل لا بدَّ أن يكون في هذا العملِ مخلصًا لله تعالى، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك.

كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»[٤].

وربَّما يعمل الإنسانُ أعمالًا جليلة، بل هي من أعظم القربات إلى رب الأرض والسماوات، لكنها لا تنفعه، بل تكون وبالًا عليه؛ لأنه عملها لغير الله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨).
(٢) يعني حديث عائشة رضي الله عنها المتقدم.
(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٧٦)
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ أول النَّاس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار»**[(١)].

زاد الترمذي[(٢)]: في أوله: أنَّ شفيًا الأصبحي قال لأبي هريرة رضي الله عنه: أسألك بحق وبحق لمَا حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنَّك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكثنا قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) الترمذي (٢٣٨٢)، **والنشغ** في الأصل: الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي. ينظر: «النهاية في غريب الحديث» (٥/ ٥٨).

معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه فأسندته عليَّ طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ... الحديث

وزاد في آخره: «قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية؛ فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظننا أنه هالك، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هُود: ١٥-١٦]»

فهؤلاء هم أول من تسعر بهم النار، ومع أنها أعمال من أعظم الأعمال: الموت في أرض المعركة، وتعلم العلم وتعليمه وإقراء القرآن، والإنفاق في وجوه البر، ولكن الأول لم يقاتل لله، وكذلك العالم، ومثله المنفق، لم يعملوا هذه الأعمال لله تعالى، فلذلك لم تنفعهم أعمالهم يوم القيامة، بل يكون ذلك الشرك في هذا العمل هو سبب عقوبتهم يوم القيامة، ويكون سببًا لأن يكونوا أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، فلا يكفي أن يكون ظاهرُ عملك صالحًا، أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، حتى يقال: هذا الشجاع، هذا القوي، هذا الذي يقف المواقف، فيأتيك الشيطان من هذا الباب، وربما أقدم على الفعل وهو يلحظ بين عينيه، وفي باله وخاطره ما يقوله الناسُ، وزملاؤه، وما عُرف عنه، وما اشْتُهر به، فهو يريد ألَّا تتأثر شهرته، أو قول الناس عنه، فإذا بالشيطان يصرفه عن الإخلاص له سبحانه، إلى إرادة قولِ الناس، وقد

يقال عنه ويتكلم عنه، ولكن هذا لا ينفع العبد إن لم يكن لله في عمله مخلصًا، فإنه يكون وبالًا عليه.

وإنما كان هؤلاءِ الثلاثة أول من تُسعَّر بهم النار -واللَّه تعالى أعلم- لكون هذه العبادات المذكورة في الحديثة رفيعة القدر عند اللَّه تعالى، فإنه لا يخفى تنويه اللَّه تعالى في محكم كتابه، بفضل الجهاد، ورفع منزلة العلماء، على سائر الناس، وتخصيص المنفقين في سبيله بالدرجات العلى، فلما لم يَبتغ أصحابُها بها وجه اللَّه تعالى الذي عظّم شأنها، ورفع قدرها، بل طلبوا بها العاجلَ، وآثروا الفاني على الباقي، جازاهم اللَّه تعالى بأن جعلهم أول من تُسعر بهم النار؛ إذ العقاب على قدر عظم الْجُرْم.

وفي «الجملة» فإنَّ القلب هو الأصلُ وعليه مدار القبول.

ومن دقيق تأمل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: «كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم العلماء، والشهداء، والصديقون، والمخلصون، وشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم»[(١)].

وصدق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا يثقله ولا ينفعه»[(٢)]. بل هو والله يضره يوم القيامة.

ومن وصايا شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: «عليك أن تحذر الرياء،

(١) نقله عنه تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الجواب الكافي» (ص٨٢).

(٢) «الفوائد» (ص٤٩).

والرياء: مراءاة الناس بأعمالك، قراءة أو صلاة، أو صدقات أو غير ذلك، يجب أن تحذره، وأن تعتمد الإخلاص لله في أعمالك، وألا تبالي بالمخلوق، يكون عملك لله وحده، لا تقصد به أحدًا من الناس، لا في قراءة، ولا في أمر بالمعروف، ولا في نهي عن منكر، ولا في صلاة، ولا في غير ذلك، تقصد وجه الله، تقصد بأعمالك وجه الله، والقربة لديه سبحانه وتعالى، ولو كان عندك أمك، أو أبوك أو أقرباؤك الآخرون، تجعل القصد وجه الله ﷻ، واعمل ابتغاء مرضاته، سواء كان العمل مع أمك أو مع أبيك، أو مع غيرهم، فالواجب أن تكون أعمالك كلها لله وحده، ويقصد بها وجهه الكريم»[1].

ولذلك فملاحظة أمر الإخلاص أمر عظيم يحتاج من الإنسان مجاهدة ومصابرة وأن يلحظ هذه النية في كل تصرف يتصرفه، فلا ينظر إلى قول الناس وعملهم، وإنما ينظر إلى رب الناس، أنه أخلص العمل لوجهه سبحانه وتعالى.

(١) «فتاوى نور على الدرب» (٤/ ٤٩). وينظر: (٤/ ٥٣)، (٨/ ٤٥٥).

الثقة بموعود الله تعالى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن من علامات أهل الإيمان صدق التجائهم لله تعالى، والثقة به سبحانه وبموعوده، ومهما رأوا من أسباب وظواهر الضعف إلا أنهم يثقون في موعود الله، وأن الله تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ولذلك لا تزيدهم الابتلاءات والمصائب والمحن إلا إيمانًا به سبحانه، وثقة بموعوده.

قال يحيى بن معاذ: «ثلاث خصال من صفة الأولياء: الثقة بالله في كل شيءٍ، والغنى به عن كل شيءٍ، والرجوع إليه من كل شيء»[(١)].

أمَّا أهل النفاق والذين في قلوبهم مرض فيرتابون إذا رأوا المحن وتَصَدُّر الأعداء وضعف المسلمين، فتنتابهم الشكوك، وتضعف عندهم العزائم، وأصبحوا من المشككين في موعود الله تعالى.

ولذلك انظر في غزوة الأحزاب لما وصف الله تعالى الحال فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٨).

فهذا وصفٌ عظيمٌ لحال الابتلاءِ والاختبار الذي مَرَّ به من شهد تلك الغزوة من المؤمنين ومن معهم، حتى قال قائلهم وبئس ما قال: الرسول يبشرنا بقصور كسرى وقيصر، وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته من الخوف[1]!

ولذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية في وصف حال المنافقين: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزَاب: ١٢].

أمَّا أهل الإيمان فإنهم لما رأوا الأحزاب قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزَاب: ٢٢].

فالله تعالى قد وعدهم بالابتلاء والامتحان، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ٢١٤].

فالمؤمنون يعلمون أنَّ مع هذا الامتحان والابتلاء النَّصرَ، بل إنَّ من بشائر النصر إحكام المحنة والشدة، فالنصر لم يكن من المؤمنين، بل كان من عند الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزَاب: ٩].

فالريح والجنود الذين لم يَرَهُم المؤمنون هم الملائكة، فنَصَر اللهُ تعالى المؤمنين وهزمَ الأحزاب وحده.

فهذا يدل دلالة واضحة وبينة على أن المؤمن دائمًا متفائلٌ، ولذلك

(١) **ينظر**: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٧٣)، «تفسير القرطبي» (١٤/ ١٤٧).

كان النَّبي ﷺ يعجبه الفأل، وتعجبه الكلمة الصالحة، حيث قال: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**» قالوا: وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»(١).

وكان النَّبي ﷺ متفائلًا في أشد الأحوال، فكان في الغار وقد تكالب عليه أهل الشرك يلاحقونه وصاحبه، فقال النَّبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه بلهجة الواثق في الله تعالى: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»(٢).

فهذه الكلمة لم تأتِ على القلب إلا بالإيمان واليقين والطمأنينة وانشراح الصدر، ولذلك روي أنّه ﷺ مرَّ في طريق هجرته على راعٍ للإبل، فقال له: لمن هذه الإبل؟ قال: لرجل من أَسْلم، فالتفت النَّبي ﷺ لأبي بكر فقال: سَلِمت يا أبا بكر.

ومَرَّ على رجل فقال: ما اسمك؟ قال: بريدة. فقال ﷺ: برد أمرنا يا أبا بكر(٣).

ولما جاء سهيل بن عمرو في صلح الحديبية، وقد اشتد الأمر على الصحابة وتكرار الرُّسل من قريش، قال النَّبي ﷺ، لما قالوا له: هذا سهيل. قال: «**سَهُل لكم من أمركم**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٣) أخرج ابن عبد البر في «التمهيد» (٨/ ٥١٤) عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ لا يتطير ولكن كان يتفاءل، فركب بريدة في سبعين راكبًا من أهل بيته من بني أسلم، فلقي النَّبي ﷺ ليلاً فقال له نبي الله: «**من أنت؟**» قال: أنا بريدة، قال فالتفت إلى أبي بكر وقال له: «يا أبا بكر برد أمرنا وصلح»، ثم قال: «مِمَّن؟» قلت: من أسلم، قال لأبي بكر: «سلمنا». وفيه (أوس بن بريدة) متروك الحديث.

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

وهذا الصلح الذي رأى فيه بعض الصحابة أنه أعطى أهل الإيمان الدَّنيَّة في الدين، سماه الله تعالى فتحًا فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفَتْح: ١].

فالفتح هنا ليس المقصود به فتح مكة، وإنَّما صلح الحديبية[(١)]، مع أنَّ بعض الصحابة كانوا يقولون: لِمَ نُعطي الدنيَّة في ديننا؟

ولما قال النَّبي في الصلح وعليٌّ رضي الله عنه يكتب: «**هذا ما صالح عليه محمد رسول الله**». فقال سهيل: لو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك، ولما منعناك. فقال النَّبي ﷺ لعلي: «**امحها**». فقال علي: لا أمحها يا رسول الله. قال «**أين هي؟**» فمسحها بيده[(٢)]، لأنه يعلم وهو الموقن بنصر الله، وأن العاقبة لأهل الإيمان.

فهكذا المؤمن يجب عليه أن يتفاءل، ولا يدب إليه اليأس، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: ٨٧].

فمن علامات الضلال: اليأس من رحمة الله، ومن نصر الله، ومن تفريج الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن القنوط من رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى، وحالهم مقابلٌ لحال مُسْتحلِّي الفواحش؛ فإنَّ هذا أَمِن مكر الله بأهلها، وذاك قنَّط أهلها من رحمة الله»[(٣)].

واللهُ تعالى أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالنصر والتمكين والعاقبة الحميدةَ، فَلِمَ اليأس؟ وإنما التفاؤل والثقة في موعود الله.

---

(١) **ينظر**: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٤٠٥).

قال النَّبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه: «**لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدِّين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أنَّ الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم**» قال: فأسلمت»[(١)].

فهذا هو حال أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يُوسُف: ١١٠].

فالله تعالى ينصر عباده ويؤيدهم.

وتأمَّل ما قصَّه الله في «سورة القصص» من خوف أم موسى رضي الله عنها على وَلَيْدها «موسى» أن تصله يدُ البغي والعدوان، جنود فرعون، فأوحي إليه أن تلقيه في البحر! ووعدها الله بوعدين: أن يردَّه الله عليها، وأن يجعله من المرسلين.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص: ٧]، فآمنت بوعد الله، وكان وعد الله متحققًا:

فردَّه الله عليها تحقيقًا للوعد الأول: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَصَص: ١٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٤٠)، وأصله في صحيح البخاري (٣٥٩٥).

وفي الوعد الآخر قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَصَص: ٣٠] فكان نبيًا رسولاً مُكلَّمًا.

قال ابن القيم رحمه الله عن حال أم موسى: «فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء، تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف»(١).

فلمَّا بعث الله موسى عليه السلام قال له الله ﷻ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القَصَص: ٣٥].

وكان موسى عليه السلام هاربًا من فرعون وجنوده، فآمن بوعد الله، فتحقق وعدُ الله ﷻ فأغرق الله فرعون وقومه، وأنجى الله موسى ومن آمن معه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص: ٤٠].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٥].

ونبينا محمد ﷺ أُخرج من مكة مهاجرًا منها فأنزل الله عليه في طريق هجرته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص: ٨٥](٢) فكانت بشارةٌ له ﷺ بالنصر والعودة إلى بلده، فآمن بذلك ﷺ، فعاد إلى مكة فاتحًا منتصرًا ودانت له العرب بعدها.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٤٢).

(٢) قال البغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٢٦): «قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القَصَص: ٨٥] أي: أنزل عليك القرآن على قول أكثر المفسرين وقال عطاء: أوجب عليك العمل بالقرآن، ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص: ٨٥] إلى مكة، وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول مجاهد. قال القتيبي: معاد الرجل: بلده؛ لأنَّه ينصرف ثم يعود إلى بلده، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لما خرج من الغار مهاجرًا إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب، =

قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوكل على الله واجب في جميع الأمور، وهو يشمل أمرين:

أحدهما: الثقة بالله والاعتماد عليه، والإيمان بأنه الناصر، وأنه مصرف الأمور، وأن بيده كل شيء سبحانه وتعالى.

والأمر الثاني: الأخذ بالأسباب من جميع الوجوه؛ لأن الله أمر بها»[(١)].

وهكذا إذا أصابك - يا عبد الله - من المحن والابتلاءات في نفسك، فثق بالله، واعلم أنَّ الله تعالى يُفرج همَّك ويكشف كربك، وأن الله تعالى أقربُ إليك من كل أحد، فثق بالله تعالى، وأنزل حاجتك به، ووالله لترينَّ الفرج والتأييد وحسن العاقبة، ما لو دبرته بنفسك لما استطعت أن تصل به إلى ما جعل الله لك من العاقبة.

= فلما أمن ورجع إلى الطريق نزل الجُحفة بين مكة والمدينة، وعَرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها، فأتاه جبريل عليه السلام وقال: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: «**نعم**»، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص: ٨٥]، وهذه الآية نزلت بالجُحفة ليست بمكية ولا مدنية».

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٦/ ١٤٠).

عبادة الصبر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وعبادة الصبر من العبادات التي عظَّم الله تعالى أجرها، وفضَّل أهلها، ورفع درجاتهم.

وهذه العبادة العظيمة الجليلة، جاء ذكرها في القرآن في مئة موضع، وذلك لعظم شأنها، وما أعده الله تعالى للصابرين.

والصبر مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا[1].

فتارة يأمر الله به، كقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النّحل: ١٢٧] وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطُّور: ٤٨].

وتارة ينهي عما يضاده، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القَلَم: ٤٨].

وتارة بتعليق الفلاح به، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠]، فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

وتارة بالثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾

---

(١) **ينظر**: «مدارج السالكين» (٢/ ١٥١)، «عدة الصابرين» (١٠٨).

[آل عِمرَان: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧].

وتارة بالإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القَصَص: ٥٤] وقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وتارة بتعليق الإمامة في الدين به وباليقين، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجدَة: ٢٤].

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه: «**ضياء**»(١).

وقال ﷺ: «**ومن يتصبر يصبره الله**»(٢).

والصبر يحتاجه المؤمن أيَّما حاجة؛ حتى يسير في هذه الدنيا على وفق ما يرتضيه الله تعالى، وكل العبادات قد رتب الله تعالى الجزاء لمن قام بها، ولكن الصبر جاء ذكر ثوابه بلا حد.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

والصبر في اللغة: الحبس والمنع، وهو نقيض الجزع، ومن حبس نفسه عن الجزع فقد صبر(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، **والتَّصبُّر**: تكلف الصبر.

(٣) **ينظر**: «الصحاح» (٢/ ٧٠٦)، «مقاييس اللغة» (٣/ ٣٢٩).

واختلفت عبارات أهل العلم في تعريفه بالنظر وِفْق اختلاف نظرتهم للصبر، وقد عرَّفه ابن القيم رحمه فأحسن في تعريفه فقال: «هو حبس النَّفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التَّسخُّط والشِّكاية لأقداره»(١).

وقال في موطن آخر: «حبس النَّفس عن الجزع والهلع والتشكي، فَيحبس النَّفس عن التسخط، واللِّسان عن الشَّكوى، والجوراح عمَّا لا ينبغِي فعله، وهُو ثبات القلب على الأَحكام القدريَّة والشرعية»(٢).

وعرفه ابنُ حجر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى، والمكابدة في تحمله، وانتظار الفرج»(٣).

وبعضُ النَّاس إذا سمع بالصبر وعبادة الصبر لم يتوارد إلى ذهنه إلا الصبر على المصائب والابتلاءات والمحن، نعم هذا نوع من الصبر محمود، وعبادة عظيمة، لكنه نوع من أنواع الصَّبر، لا الصَّبرُ كلُّه.

والصبر على المصائب والابتلاءات - وهو الصبر على أقدار الله المؤلمة - واجب على المسلم، ويكون صبره بعدم إظهار الجزع أو التَّسخط سواء أكان قولاً أو فعلاً، فمن لزم الصبر لم يتسخط على القدر، ولم يعترض عليه، وإن كان متألمًا في نفسه.

ولذلك قال ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(٤).

---

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوته» (ص٢٠).
(٢) «الروح» (ص٢٤١).
(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٠٣).
(٤) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

والصبر على ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المحرم، وصبر على أقدار الله.

النوع الأول - وهو أعظمها -: الصبر على طاعة الله تعالى.

فإنَّ الطاعة لله تعالى تحتاجُ إلى صبر ومصابرة.

وما ذلك إلا أنَّ الصبر على التَّكليف هو صبر على الطاعة أو صبر عن المعصية، وهما أفضل من الصبر على مُرِّ القدر، والذي يأتي به البَرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فلابُدَّ لكلِّ أحد من الصَّبر على القدر سواء أكان اختياراً أو اضطراراً، أما الصبر على الأوامر وعن النواهي فهو صبر من اتَّبع الرسل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس. ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شابًا، وداعية الشباب إليها قوية، وعَزَبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبًا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارًا، وإيثارًا لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجُبِّ على ما ليس

من كسبه؟!»[(١)].

والصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل؛ فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية على الأوامر[(٢)]، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠].

والعبد يحتاج إلى الصبر للقيام بالعبادات:

فعبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحتاج إلى صبر ومصابرة. فالصبر من مقتضيات ولوازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العَصر: ١-٣]: أي لا بد من الصبر إذا تواصى الإنسان مع إخوانه على الحق.

قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمَان: ١٧].

وعبادة الصلاة تحتاج إلى صبر، فيترك الإنسان لذيذ نومه، ويترك فراشه ويهبُّ لإجابة داعي الله تعالى، فيؤدي صلاة الفجر مع جماعة المسلمين، فهذا يحتاج إلى الصبر.

وكذلك إسباغ الوضوء على المكاره يحتاج إلى الصبر.

وكذلك الصوم وترك الطعام والشراب في يوم شديد الحر يحتاج إلى صبر.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦).

(٢) **ينظر**: «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧)، «عدة الصابرين» (ص٥٦).

وإنفاق المال الذي هو محبوب للنفس يحتاج إلى صبر.

وبالجملة: فما من عبادة إلا وهي بحاجة للصبر؛ لما فيها من مخالفة النفس وإرغامها على ما تكره.

النوع الثاني: الصبر عن محارم الله ومعاصيه.

فالإنسان يحتاج إلى أن يمنع نفسه إذا دعته إلى ارتكاب محرم من المحرمات بالصبر، فإذا دعته نفسه وهواه إلى النظر المحرم، أو إلى سماع المحرم، أو إلى فعل المحرم، فيتذكر أن الله قد نهاه، وأن الله تعالى مطلع عليه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العَلق: ١٤]، فيصبر عن هذه المعصية رجاء ثواب الله تعالى، وخوف عقابه.

ومما يعين على الصبر عن محارم الله: أن يعلم العبد قبحها، وأن الله حرمها صيانة له عن الرذائل؛ فيحمله ذلك على تركها، ولو لم يَرِد على فِعلها وَعيدٌ، ومنها الحياء منه، والخوف منه أن يوقع وعيده، فيتركها لسوء عاقبتها، وأنَّ الله مطلع عليه يراه ويسمعه، فيبعثه ذلك على الكفِّ عما نهي عنه، ومنها مراعاة النِّعم، فإن المعصية غالبًا تكون سببًا لزوال النعمة، ومنها محبة الله، فإن المحب يصير نفسه على مراد من يحب[1].

النوع الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة.

ولذلك من أركان الإيمان الرضا بقضاء الله وقدره، وأن يعلم الإنسان أن القدر خيره وشره من الله، وأن ما أصابه إنما هو بقدر الله تعالى فيصبر ويحتسب، ولذلك قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥].

(١) **ينظر**: «فتح الباري» (١١/ ٣٠٣).

فالصبر عند المصائب من العبادات العظيمة التي يغنم بها العبد الأجور العظيمة.

فعن أبي هريرةِ ﵁ قال :أتت امرأة إلى النبي ﷺ بصبيٍ لها فقالت: يا نبي الله! ادعُ الله له، فلقد دفنت ثلاثةً، قال ﷺ: «**دفنت ثلاثة؟!**» ـ مستعظماً أمرها ﷺ ـ قالت: نعم؛ قال: «**لقد احتظرتِ بحظارٍ شديدٍ من النار**».(١)

وعن أبي موسى الأشعري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد، قال الله** ﷻ لملائكته: «أقبضتم ولد عبدي؟» فيقولون: نعم؛ فيقول وهو أعلم: «أقبضتم ثمرة فؤاده؟» فيقولون: نعم. فيقول: «ماذا قال عبدي؟» فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله ﷻ: «ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد»(٢).

وهذا الأجر العظيم له شرط، وهو أن يكون الصبر عند الصدمة الأولى.

فعن أنس ﵁ قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «**اتقي الله واصبري**». قالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوَّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٣).

قال ابن القيم ﵀: «قوله: «**الصبر عند الصدمة الاولى**»، مثل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٦). **قوله: احتظرت**، أي امتنعت بمانع وثيق من النار، وتحصنت منها بحصن حصين، وأصل الحظر: المنع.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٧٢٥)، والترمذي (١٠٢١).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٣).

قوله: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه وقت الغضب**» فإن مفاجئات المصيبة بغتة لها رَوعة تزعزع القلب، وتزعجه بصدمها، فإن صبر الصدمة الأولى انكسر حدها، وضعفت قوتها، فهان عليه استدامة الصبر، وأيضا فإن المصيبة تَرد على القلب، وهو غير موطن لها، فتزعجه وهى الصدمة الأولى، وأما اذا وردت عليه بعد ذلك توطَّن لها، وعلم أنه لا بدَّ له منها، فيصير صبره شبيه الاضطرار، وهذه المرأة لمَا علمت أن جزعها لا يجدى عليها شيئًا جاءت تعتذر إلى النبي؛ كأنها تقول له: قد صبرت، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى».

فكل صاحب مصيبة فإن قصاراه ومآله إلى الصبر، ولكنه إنما يحمد على صبره عند حِدَّة المصيبة وحرارتها.

فالمرء عند المصائب يصبر رجاء ثواب الله تعالى، وقد قال النَّبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له**»[(١)].

فالمؤمن في كل أحواله إنما يفعل ما يرضي الله تعالى من العبادات، فلا تستخرج عبادة الصبر إلا عند مقتضاها من الصبر على طاعة الله، والصبر عن محارم الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

فالمرء عند المصيبة وعند الصدمة الأولى يتذكر ما أعده الله تعالى للصابرين، وأن المؤمن إذا أصابته ضراء صبر، ويعلم أن هذه المصيبة ما

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

حدثت ولا مضت إلا بتقدير العليم الحكيم، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فيؤمن بالقدر خيره وشره، وعليه الاسترجاع والحمد، وأن يعلم أن عبادة الصبر من أجلِّ العبادات، وأنه يبتلى بأمور كثيرة، لكن كما قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: ٦٠]، فاعلم أنه لو جاءك ما يأتي من المحن والابتلاءات والأذى من قول أو فعل أنَّ عبادة الصبر هي ما يتقرَّب به العبد في هذه الحال، وأنَّ العاقبة حميدة لمن صبر لله تعالى في الدنيا والآخرة.

نعم الله على العباد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله تعالى قد أسبغ نعمه على عباده ظاهرًا وباطنًا، والله تعالى خيره إلى العباد نازل، يتقلبون في نعمه صباح مساء لا غنى لهم عن الله طرفة عين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ولذلك لو بقي العبد يعدد هذه النعم فلن يحصي نعم الله تعالى، قد يستطيع أن يبدأ العد في هذه النعم، لكن لن يستطيع أن يستقصي ولا أن يحصي نعم الله عليه.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]: أي إن حاولتم إحصاءها وحصرها عددًا حتى لا يشذ شيء منها لم تقدروا على ذلك، ولا اتفق لكم إحصاؤها إذ هي في كل دقيقة من أحوالكم. و«النعمة» هنا مفردة يراد بها الجمع[(١)].

فلم ينف الله تعالى قدرة العباد على تعداد نعم الله، لكنه نفى القدرة على إحصائها، فلا يستطيع العبد أن يحصي نعم الله تعالى عليه.

---

(١) **ينظر**: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٣/ ٣٨٥).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصي ما أنعم الله به عليه في خَلْق عضوٍ من أعضائه، أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ولا أمكنه أصلاً، فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه في كل وقت على تنوعها واختلاف أجناسها؟!

اللهم إنَّا نشكرك على كل نعمة أنعمت بها علينا مما لا يعلمه إلا أنت ومما علمناه؛ شكرًا لا يحيط به حصر ولا يحصره عَدٌّ، وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان»[1].

وهذا الذي أسبغ عليك النعم ظاهرًا وباطنًا مستحق للحمد والشكر ظاهرًا وباطنًا، وألا يعصى ﷻ ظاهرًا وباطنًا.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

فأمر الله تعالى بأن يذروا الإثم، وهو كل ما عُصي الله به، سره وعلانيته، قليله وكثيره. فحري بالعبد أن يترك معصية الله تعالى ظاهرًا وباطنًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فالعبد قد يترك بعض المعاصي الظاهرة، لكن الامتحان والابتلاء الأعظم في ترك المعاصي الباطنة التي لا يعلمها إلا الله تعالى والذي لا تخفى عليه سبحانه خافية.

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]: نهي عام عن جميع أنواع الفواحش

(١) «فتح القدير» (٣/ ١٣٢).

وهي المعاصي، و(**ظهر وبطن**) حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء، وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أشياء مخصصات»[(١)].

فإذا أنعم الله عليك بالنعم ظاهرًا وباطنًا، فاترك المعاصي ظاهرًا وباطنًا، وانظر إلى صدقك مع الله تعالى في سرك وعلانيتك، ومراقبتك لله تعالى في السر والعلانية، فهذا امتحان للعبد، والله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العَلق: ١٤].

فالله تعالى لا تخفى عليه خافية، لا في ليل ولا في نهار، ولا في سر ولا في علانية، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، ولذلك انظر إلى نفسك في خلواتك.

إذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

واعلم يا - عبد الله - أنَّ أعظم نعم الله عليك هي الهداية لهذا الدين، والإيمان والتوحيد.

قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأعظم النِّعم نعمة الدين، وقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب حتى أبان لعباده دينه العظيم ووضحه لهم ثم وفقك أيها المسلم وهداك حتى كنت من أهله.

فهذه النعمة العظيمة التي يجب أن نشكر الله عليها غاية الشكر.

وإنما يعرف قدرها وعظمتها من نظر في حال العالم وما نزل بهم

---

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٦٢). **وينظر**: «جامع البيان» للطبري (٩/ ٥١٨)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٤١٦).

من أنواع الكفر والشرك والضلال وما ظهر بين العالم من أنواع الفساد والانحراف»[١].

ومن أعظم منه ﷻ إكمال هذا الدين العظيم، فلا تحتاج لغيره:

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه أكبر نعم الله ﷻ على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعَام: ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل الدِّين لهم تمت النعمة عليهم»[٢].

ومن عظيم منه ﷻ بعثه رسله مبشرين ومنذرين:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشر حالاً منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردَّها وخرج عنها فهو من شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٥/ ١٦٦)، **وينظر**: (٧/ ٣٠٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٦).

والحيوان البهيم»[(١)].

ومن منن الله الكبرى، نعمة الأمن:

قال ﷺ: «**من أصبح منكم آمناً في سِربه[(٢)]، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزت له الدُّنيا بحذافيرها**»[(٣)].

أي: جمع الله له جميع النعم التي من ملك الدنيا لم يحصل على غيرها فينبغي ألَّا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها.

فالأمن من أعظم نعم الله على عباده بعد نعمة الإيمان والإسلام، ولا يشعر بهذه النعمة إلا من فقدها، كالذين يعيشون في البلاد التي يختل فيها النظام والأمن، أو الذين عاصروا الحروب الطاحنة التي تهلك الحرث والنسل، فإذا اختلّ الأمن فسدت الحياة، وساءت الأحوال، وتغيرت النِّعَم إلى ضدها، فصار الأمن خوفًا، ورغد العيش جوعًا، واجتماع الكلمة فوضى، والعدل ظلمًا.

ومن نعم الله العظمى على هذه البلاد - المملكة العربية السعودية - إقامتها لشرع الله في جميع شؤونها، فهي ترعى أمر الدين والدنيا وفق المنهج الشرعي.

نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكر، وأن يوزعنا شكرها، وأن يديم علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يبارك لنا فيما أعطى، وأن يحفظ بلادنا من كل سوء ومكروه، ويحفظ ولاة أمرنا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٠٠).

(٢) **بكسر السين** على الأشهر أي: في نفسه، **وروي بفتحها** أي: في مسلكه، **وقيل: بفتحتين** أي في بيته.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٠)، والترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٢١٤٢).

استثمار شهر رمضان[١]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإني أهنئكم بقدوم هذا الشهر المبارك، شهر رمضان الذي أظلنا وأظل الأمة الإسلامية، أهلَّه الله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام. والحمد لله الذي بلغنا إياه، ونسأله تعالى أن يبلغنا آخره، وأن يعيننا على عبادته وعلى الصيام والقيام.

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

فالهداية والتوفيق من الله تعالى، ولا حول ولا قوة للعبد إلا به تعالى، ولذلك فليست العبرة ببلوغ الشهر، وإنَّما العبرة بمن وفَّقه الله تعالى فاستثمر أيامه ولياليه، وتعرض لنفحات المولى فيه، وكان فيه من الفائزين المعتقين من النار.

أمَّا بلوغ الشهر فهو حجةٌ إمَّا لك وإمَّا عليك، ورُبَّ عبدٍ أدرك الشَّهر وأظلَّه، وخرج منه ولم يُغفر له، وقد دعا عليه جبريل وأمن على

(١) سبق حديث بعنوان: «الاستعداد لشهر رمضان».

دعائه النَّبي ﷺ: «**رغم أنف عبد أدرك رمضان ثم خرج ولم يغفر له**».

فالعبد وقد منَّ الله تعالى عليه ببلوغ هذه المنة والمنحة منه تعالى، عليه أن يشكر الله، وأن يُكبره سبحانه، وأن يسأله العون والتوفيق، وأن يكون بإدراك هذا الشهر مغتبطًا بنعمة الله، فالاغتباط بنعم الله تعالى من العبادات، فشهر رمضان شهر المغفرة، والرحمة، والعتق من النيران، ففيه تفتح أبواب الجنان، وتغلق أبواب النيران، وتصفد الشياطين، وينادي المنادي في أول ليلة منه: «**يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر. ولله عتقاء من النار وذلك في كل ليلة**»، فيتعرض العبدُ لنفحات المولى ﷻ.

والله تعالى يفيض على بعض عباده من نفحاته سبحانه فيغفر لهم ذنوبهم ويدخلهم الجنة ويعتقهم من النار، وذلك من فيض رحمته وكرمه وجوده وإحسانه، فإذا وافق العبد نفحة من نفحات المولى فحصلت بها مغفرة ذنوبه، كانت سعادته في الدنيا والآخرة.

فاستثمروا - عبادَ الله - أيام هذا الشهر ولياليه، واغتبطوا بنعمة الله وأروا الله من أنفسكم خيرًا، فإنَّ الأوقات سرعان ما تمضي، وإنَّ قُطَّاع الطريق على الصَّالحين في استثمار أيام هذا الشهر ولياليه كثر ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٢٧].

ولكن المؤمن شحيحٌ ضنينٌ بوقته، ويعلم أن حياته هي هذا الوقت الذي يقطعه، فيمضيه فيما يرضي ربه تعالى، ويحفظ صيامه.

فإذا صمْتَ فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن المحارم، ودع عنك أذى الجار، وليكن عليك سكينة ووقار، ولا يكن يوم صومك ويوم فطرك سواء.

وقد قال النَّبي ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[١].

فالصوم من أعظم العبادات وأجلها، ولذلك اختص الله تعالى بثوابه، واختصه تعالى لنفسه من سائر الأعمال، حيث قال في الحديث القدسي: «**الصوم لي، وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه**»[٢]، **يفرح أن الله تعالى أعانه فأكمل صوم يومه، ويفرح إذا رأى الأجر والثواب يوم القيامة.**

وكان النَّبي ﷺ يخبر أصحابه بقدومه، وهذا فيه دلالة على طلب النفوس للاستعداد لهذا الشهر، وتهيئة النفوس له بالعمل الصالح.

ومن أعظم القربات وأجلها وهو من الفرائض العظيمة صوم هذا الشهر، فقد افترض الله تعالى صيامه، وشرع النَّبي ﷺ قيامه، فقال ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومنن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**».

ومن الأعمال الجليلة المحافظة على قيام هذا الشهر كما كان دأب النَّبي صلى الله عليه وسنته وأصحابه من بعده، فعلى المسلم أن يحرص على قيام هذا الشهر، ومن قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة[٣]، فكأنه قام الليل كله، وهذا من فضل الله تعالى وجوده.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٣). (٢) تقدم تخريجه وشرحه.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٨١٨)، والنسائي (١٢٨٩) وأبو داود (١٣٧٥)، والترمذي، (٨٠٦)، وابن ماجه (١٣٢٧).

ومن الأعمال الصالحات التي يستثمر فيها العبدُ هذا الشهر قراءة القرآن، فإنَّ شهرَ رمضان شهرُ القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكان النَّبي ﷺ يدارسه جبريلَ القرآن في كل ليلة من رمضان، فَلَرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن أجود بالخير من الريح المرسلة[١]، ولذلك أَقْبِل على هذا القرآن في هذا الشهر بخاصة، وأكثر من قراءته وتدبر معانيه، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ومن الأعمال الصالحاتِ الجودُ والإحسان، فهو شهر الجود والإحسان، وقد كان النَّبي ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، فتعاهد الفقراء والمساكين، وصل الأرحام، وزر الجيران وتفقد أحوالهم، وفَطِّر الصائمين وأطعم الطعام.

فكن - يا عبد الله - جوادًا في هذا الشهر فإنه شهر الجود، فشهر رمضان من الأعمال الصالحات الجليلات فيه إطعام الطعام، فإن ذلك من القربات العظيمة التي تقرب إلى رب الأرض والسماوات.

ومن الأعمال الصالحة في هذا الشهر الإكثار من ذكر الله تعالى، فإنَّ ذكر الله تعالى من أجل وأعظم القربات ومن أسهلها وأهونها على العبد إذا وفقه الله، فإنَّ وصية النبي ﷺ لمن طلبها منه قوله ﷺ: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»[٢].

فكن من الذاكرين الله تعالى كثيرًا، فإنَّ ذِكْرَ الله من أعظم ما يعين

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٨٠)، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣).

العبد على عبادة الله وعلى حفظ وقته، واعلم أَنَّ صوارفَ الإنسان عن العمل الصالح كثيرة، لا سيما في هذا الوقت مع وسائل التواصل الاجتماعي، وما يصل للإنسان من خلال جواله، أو من خلال البث في القنوات وغيرها، فلا تكن ضحية وفريسة لمن يريد أن يصرفك عن استثمار أيام هذا الشهر الكريم ولياليه، وحث أولادك ومن تحت يدك على استثمار هذا الشهر، وعلى أن يكون لهم من الأعمال الصالحة ما لا يكون في غير رمضان، فقد كان النَّبي ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وهذا هو دأب الصالحين، فهذا الشهر ليس كسائر الشهور، فقد اختصه الله تعالى بمزيد فضل، والله تعالى يختار ما يشاء.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾ [القَصَص: ٦٨]، فاختار الله هذا الشهر من بين سائر الشهور وفضله سبحانه، فلتكن مُفضِّلًا لما فَضَّله الله تعالى، وفضله رسوله ﷺ.

فوائد من حديث: «أنظروا هذين حتى يصطلحا»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلاً**[(١)] **كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا**»[(٢)]، وفي رواية: «**إلا المُتَشَاحِنَيْن**»[(٣)].

في هذا الحديث فوائد:

الأولى: بيان فضل الله تعالى ومنته على عباده المؤمنين الموحدين، وأنه سبحانه يغفر ذنوب عباده ممن لا يشرك بالله تعالى شيئًا ابتداءً، ولو لم يتقدم ذلك توبة ما اجتنبت الكبائر، كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النّجم: ٣٢].

الثانية: فيه دلالةٌ على فضل التوحيد وما يكفر به من الذنوب، وأن توحيد الله تعالى من أسباب مغفرة الذنوب والسيئات، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا.

---

(١) بالنصب استثناء من كلام موجب وهي الرواية الصحيحة، وروي بالرفع، فيكون الكلام محمولاً على المعنى، أي: لا يبقى ذنب أحد إلا ذنب رجل. **ينظر**: «شرح الزرقاني على الموطأ» (٤/ ٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

(٣) أخرجها أحمد (٧٧٥٤).

الثالثة: أن أعمال الأسبوع تعرض هذين اليومين على الله ﷻ، كما أنَّ أعمال اليوم تعرض مرتين، وأعمال العام تعرض على الله في شهر شعبان.

قال ابن القيم رحمه الله: «عمل العام يرفع في شعبان؛ كما أخبر به الصادق المصدوق[١] ويعرض عمل الأسبوع يوم الاثنين والخميس، وعمل اليوم يرفع في آخره قبل الليل، وعمل الليل في آخره قبل النهار[٢]. فهذا الرفع في اليوم والليلة أخص من الرفع في العام، وإذا انقضى الأجل رفع عمل العمر كله وطويت صحيفة العمل»[٣].

الرابعة: أن أبواب الجنة تفتح، وهذا من دلائل رحمة الله تعالى، فإن الجنة هي دار كرامته سبحانه، وهذا فيه إشارة إلى الاستعداد لمن يكرمهم الله تعالى فيكتبهم من أهل الجنة، فإن الإنسان إذا أراد أكرام الضيف الذي سيقدم عليه فإن من الإكرام فتح الباب قبل أن يَفِد الضيف، فإذا جاء الضيف والباب قد أشرع وفتح، فإن ذلك من علامات الإكرام، فلا يحتاج الضيف لأن يطرق الباب، والله تعالى - وله المثل الأعلى - قد فتح جنته لعباده الموحدين، وذلك في كل يوم اثنين وخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، فالله تعالى هو الغفور الرحيم.

---

(١) أخرج أحمد (٢١٧٥٣)، والنسائي (٢٦٧٨) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قلت يا رسول الله، لم أرك تصوم شهرًا من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «**ذلك شهر يغفل الناس عنه، بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الاعمال إلى رب العالمين؛ فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم**».

(٢) أخرج مسلم (١٧٩) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور- وفي رواية: النار - ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» .وتقدم شرح هذا الحديث.

(٣) «طريق الهجرتين» (ص٧٥).

الخامسة: خطورة تهاجر المسلمين دون سبب شرعي، وأنها من الذنوب العظيمة، فيُحرم هذا الفضل العظيم من كان بينه وبين أخيه شحناء أو خصومة من أجل الدنيا، فيتقاطعا ويتهاجرا ويكون بينهم من القطيعة والهجران ما يكون أسباب إنظارهما، فلا يُدخلا في هذا الفضل العظيم، وهو مغفرة الذنوب وتهيئة الجنة لهم.

وقد قال النَّبي ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**»[(١)]، فبين الاثنين والخميس مدة كافية لا تزيد على ثلاثة أيام، لثوران الغضب، ووجود شيء في النفس، لكن لا تتعدى هذه المدة، فلا يأتي على اثنين بعد خميس، أو خميس بعد اثنين إلا وقد اصطلح مع أخيه.

وخيرهما الذي يبدأ بالسلام وبإزالة سخيمة النفوس والشحناء رجاء ما عند الله أولًا، ثم ما أمر الله تعالى به عباده من الإحسان إلى عباد الله، وقد وصف الله أهل الإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، فالمؤمنون فيما بينهم إخوة.

فالأخوة الإيمانية تقتضي سلامة الصدر لأخيك، وإذا وقع منه زلَّة أو خطأ أو اعتداء، ونحو ذلك، فلا يكن ذلك من أسباب الهجران والقطيعة، وارْج ما عند الله تعالى؛ فإن من أعظم أسباب دخول الجنة وحصول رضوان الله تعالى سلامةَ الصدر: لا غشَّ فيه، ولا غلَّ، ولا حقد، ولا حسد، ولا بغضاء لأحد من المسلمين، فلا ينام وفي صدره على أحد من إخوانه شيء.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

ولذلك فلينظر العبد إلى ما أعده الله تعالى لعباده من الموحدين، ولينظر إلى أسباب المنع من حصول مغفرته ﷻ ومن ذلك وقوع الشحناء والبغضاء بين الإخوان والخصومة التي تؤدي إلى التهاجر والتدابر والتقاطع، فإنَّ ذلك من أسباب منع رحمة الله تعالى ومغفرته للعبد.

ففي يوم الاثنين والخميس تفتح أبواب الجنة، وتعرض الأعمال على الله، فلا يُعرض عملك على الله تعالى وفي صحيفتك القطيعة والهجران مع إخوانك، واحتسب في ذلك الثواب والأجر وابتغاء وجه الله تعالى، فإن ذلك خير من الدنيا وما فيها، ولا يحصل للعبد من الهجران والقطيعة إلا الأذى النفسي، وإرضاء الشيطان، وازدياد النفرة.

وإذا كان العبد في سلامة من صدره، ومحبة لإخوانه، حصل له السعادة في الدنيا مع الأجر والمثوبة في الآخرة.

السادسة: أنَّ الذنوب التي تتعلق بحقوق العباد إذا تساقطوها وعفا بعضهم عن بعض سقطت عند الله ﷻ بمنِّه وكرمه؛ لتعلقها بحقوق العباد دون حقِّه تعالى.

قال ابن عبد البر رحمه الله: «الذنوب بين العباد إذا تساقطوها وغفرها بعضهم لبعض أو خرج بعضهم لبعض عما لزمه منها سقطت المطالبة من الله ﷻ بدليل قوله ﷺ «**حتى يصطلحا**» فإذا اصطلحا غفر لهما»[(١)].

السابعة: إثبات صفة الكلام لله ﷻ، وأن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بحرف وصوت، لا يماثل أصوات المخلوقين[(٢)].

---

(١) «الاستذكار» (٨/ ٢٩٤).

(٢) **ينظر**: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥١٨)، (١٢/ ٢٤٣)، «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (١/ ٤١٩).

الثامنة: أنَّ الجنة مخلوقة ولها ثمانية كما جاء في الحديث المتفق عليه: «**من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنَّ الجنة حق، وأنَّ النار حقٌّ، أدخله الله من أيِّ أبواب الجنة الثمانية شاء**»(١).

ولهذه الأبواب أسماء ثبت بعضها بنصوص شرعية، فهناك أربعة أبواب جاءت تسميتها في حديث أبي هريرة المتفق عليه: «**من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أي أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة**»(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقع في الحديث ذكر أربعة أبواب من أبواب الجنة، وبقي من الأركان الحج فله باب بلا شك، وأمَّا الثلاثة الأخرى فمنها: (باب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس)، ومنها: (باب الأيمن) وهو باب المتوكلين الذي يدخل منه من لا حساب عليه ولا عذاب(٣)، وأمَّا الثالث: فلعله (باب الذكر)، فإن عند الترمذي ما يومئ إليه، ويحتمل أن يكون باب العلم»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

(٣) وهو ما وراه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث شفاعة النبي ﷺ، وفيه: «**فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من باب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب**». أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٤) «فتح الباري» (٧/ ٢٨).

التاسعة: فضل يومي الاثنين والخميس على غيرهما من الأيام دون الجمعة، وأنّ فيهما فضلًا كثيرًا، لِمَا يفتحُ الله فيهما من الرَّحمة لعباده، والمغفرة لهم ولذنوبهم فكان ﷺ يصومهما وندب أمته لصيامهما.

العاشرة: أن الهجر لأمر شرعي لا يدخل في هذا الحديث، فقد صح أنَّ النبيَّ ﷺ هجر نساءه شهرًا، وصح أن ابن عمر رضي الله عنه هجر ابنه.

قال شيخنا ابن باز رحمه الله: «إذا كان الهجر لحق الله من أجل إظهار المعاصي، أو من أجل إظهار البدع فهذا ليس له حدٌّ في الأيام، وإنَّما حدُّه التوبة، فمتى تاب المُعلِن من المعاصي أو البدع تُرك هجره، ومتى بقي على حاله فإنه يهجر، وقد هجر النبي ﷺ ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن الغزو بغير عذر شرعي، بعدما استنفرهم النبي ﷺ، فَهجَرهم وهَجَرهم المسلمون خمسين ليلة، حتى تاب الله عليهم، فأذن بكلامهم عليه الصلاة والسلام».

الفهرس

فهرس الموضوعات

مقدمة ٧

يا عبادي ٩

فوائد من حديث قاتل المائة نفس ١٨

العمل بالعلم ٢٤

محبة الله للعبد ٢٨

الجزاء من جنس العمل ٣٤

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤١

الحياء من الله ٤٨

الرجاء والخوف من الله ٥٢

انحراف الخوارج وضلالهم ٥٧

الاستعداد لشهر رمضان ٦٥

رعاية الأبناء ٧١

منافع الحج ٧٧

استصغار العمل وعدم الاغترار به ٨٥

مقام الخوف من الله تعالى ٩٠

وصايا نبوية عظيمة ٩٧

القصاص يوم القيامة ١٠٥

قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ١١٠

العلم بأسماء الله وصفاته ١١٦
اهدنا الصراط المستقيم ١٢٤
سلامة الصدر ١٢٩
الانتفاع بالقرآن ١٣٦
الإخلاص في القول والعمل ١٤٠
الثقة بموعود الله تعالى ١٤٦
عبادة الصبر ١٥٣
نعم الله على العباد ١٦٢
استثمار شهر رمضان ١٦٧
فوائد من حديث: «أنظروا هذين حتى يصطلحا» ١٧٢

حديث الأربعاء